

تقدم لك

وسائل إظهار الحق

للإمام المجدد



أستاذ الشريعة الإسلامية
بجامعة الخرطوم

طبع بإذن من
شيخ الطريقة العزمية
السيد عز الدين ماضي أبو العزائم
المحامي بالنقض



الطبعة الأولى ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م

الطبعة الثانية ١٣٣٧ هـ - ١٩١٩ م

الطبعة الثالثة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م

الطبعة الرابعة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الطبعة الخامسة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

فاتحة الكتاب

الحمد لله سابغ النعم ، ودافع النقم ، وبارىء النسم ، وجامع الأمم ، وشافى السقم . بعث الأنبياء ليبين عدله ، ونصَّب الأولياء ليظهر طَوْله وفضله . والصلاة والسلام على أفضل الأصفياء وأعلى الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ، وعلى آله سادات أهل الجنة أجمعين ، وشفعاء يوم الدين ، وأئمة أهل الأرض على اليقين ، وعلى أصحابه المجتبين . ورضى الله تبارك وتعالى عن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ، ونضر الله وجه خليفته الأول الإمام الممتحن السيد أحمد ماضى أبى العزائم آمين .

وبعد فتقدم دار المدينة المنورة ـــ وهى الهيئة التابعة لمشيخة السادة العزمية ، والمنوط بها طبع ونشر وتوزيع تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ـــ الطبعة الخامسة من كتاب : « وسائل إظهار الحق » الذى يعالج فيه قضية التبشير والاستشراق ، فى أفريقيا وآسيا ، لارتباط التبشير والاستشراق فى هاتين القارتين بالاستعمار ، وذلك لأن أفريقيا وآسيا تعرضتا لأغلب أنواع الاستعمار على مدى قرون عديدة ، وذاقتا صنوفا من ويلات الاستعمار الإنجليزى والفرنسى ، والإيطالى والألمانى ، والهولندى والبلجيكى ، والأسبانى والبرتغالى .

والتبشير والاستشراق لا فرق بينهما إلا فى أن صورة الاستشراق : « المباحث الفكرية » وصورة التبشير « العمل الخيرى » .

وقد قام الاستعمار بتدريب دعاة التبشير والاستشراق ووجَّههم نحو العالم الإسلامى وقسَّمهم إلى مجموعتين :

أولا : مجموعة المباحث الفكرية :

وهى التى تعتبر من أقوى وسائل الاستشراق ، ونظرا لأهميتها فقد اعتمد عليها المستشرقون ولها أوجه متعددة فمنها :

١ - الأبحاث التى تشوِّه حقيقة الإسلام فى صورة تأليف كتب أو إلقاء محاضرات ودروس ، كادِّعائهم أن الإسلام دين مادى لا روحانية فيه ، وأنه يميل إلى الاعتداء ، وأنه يدعو إلى الاستغراق فى ملذَّات الدنيا ، كل ذلك لتوهين العقيدة الإسلامية .

٢ – تحريف فهم القرآن ، لإنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية لماضى الأمة الإسلامية ، والازدراء بهذه الشعوب فى المجالات الدولية العالمية .

٣ – التعليم الإرسالى ، لبيان أن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة ، بل يجب أن تستخدم العامية واللهجات الدارجة بدلا منها ، وأن تُستَبْدَل الحروف العربية بالحروف اللاتينية ، والإعلام عن طريق الصحافة ودور النشر ، لمقاومة الأزهر وإضعاف تأثيره ، وإذاعة الدعوات المشبوهة ، كالدعوة إلى التسامح ، والدعوة إلى الحوار والجدل .

٤ – إحياء القوميات التى أزالها الإسلام ، كالفرعونية فى مصر ، والأشورية فى العراق ، والبربرية فى شمال أفريقيا والأندلس ، والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان ، والفارسية فى إيران . وذلك لتخريب العالم الإسلامى وتقطيع أوصاله ، بغية تمزيق الوحدة الإسلامية ، التى كان من آثارها إلغاء الخلافة الإسلامية فى الدولة العثمانية ، وإثارة الفتن الداخلية بالأمة العربية .

ثانيا : مجموعة العمل الخيرى :

وهى التى تعتبر من أخطر وسائل التبشير ، ونظرا لأهميتها وخطورتها فقد اعتمد عليها المبشِّرون فى أساليبهم التى منها :

١ – العلاج الطبى فى المستوصفات والمستشفيات ، فالطبيب فى هذه الإرساليات ، هو مبشر أولا ثم هو طبيب ثانيا .

٢ – الملاجىء التى تضم الأطفال ، والجمعيات ، والنوادى ، والمعونات لاستغلال حالات الفقر والحاجة .

وقد حاول التبشير والاستشراق أن يحقق أهدافه بكل هذه الوسائل ، وسلكوا كل مسلك ظنوه محققا لأهدافهم . غير أن علماء المسلمين فى زماننا هذا ، كانوا يعتبرون وسائل المستشرقين هذه ، فقاقيع لا تلبث أن تتلاشى ، أو كلام فارغ تصده العقيدة الإسلامية الموروثة وحدها .

ولكن الإمام المجدِّد السيد محمد ماضى أبا العزائم ، لا يهوِّن من شأن وسائل المستشرقين ، فلا يقول كما قال علماء المسلمين : « إن كتب المستشرقين كلام فارغ » ، ولم يلق هذه الكتب بعيدا ، مرددا ما قاله هؤلاء العلماء : « إن ما بها كذب وتضليل وحقد عميق » ، بل شمَّر عن ساعده وكتب مجادلا هؤلاء المستشرقين بالتى هى أحسن ،

ودفع المطاعن التى وجهت للإسلام والمسلمين ، من واقع مسئوليته كإمام مجدد لهذا القرن الذى نعيش فيه .

ويعتمد ما أثاره المستشرقون فى كتبهم قديما وحديثا ، على مصدرين أساسين ، يردد محتواهما كل جيل من هؤلاء المستشرقين :

المصدر الأول : كتاب : « ميزان الحق » للمستشرق الدكتور فندر .

المصدر الثانى : كتاب : « تذييل مقال فى الإسلام » للمستشرق هاشما العربى .

وقد تعرض للرد على كتاب : « ميزان الحق » المرحوم الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه : « إظهار الحق » . ولكن المستشرق الدكتور « تسدل » حاول جاهدا أن يرد على الشيخ رحمة الله الهندى .

فمن أجل ذلك كله رأى الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم أن يتضمن كتابه : « وسائل إظهار الحق » الرد على المستشرق الدكتور فندر والمستشرق هاشما العربى والمستشرق الدكتور « تسدل » .

والقارىء لهذا الكتاب يعجب كل العجب من آراء هؤلاء المستشرقين الذين تدفعهم دراساتهم التى تمليها عليهم العصبية الحمقاء ، ومظاهر الحياة الدنيا ومتاعها ، أن يحاولوا الكتابة بالباطل وهم يعلمون أنها باطل .

كما سيجد القارىء لهذا الكتاب البراهين القاطعة ، التى تمليها قوانين العقل والمنطق ، والتى تناولها الإمام رضى الله عنه ليبيِّن الصحيح من الفاسد ، ولم يخرج رضى الله عنه فى كتابه هذا عن الأدب ، كما خرج هؤلاء المستشرقون بل إنه يمر على مطاعنهم بدون اكتراث ولا مبالاة ، لأن مطاعنهم هراء من القول ، وسخافات تضحك من له أدنى إلمام بالنظريات العقلية والمباحث العلمية .

ولعل هذا هو الكتاب الوحيد الذى قام بالرد على دعاة التبشير والاستشراق ، ولذلك كان عرضة لأن يُمنع تداوله من السلطات البريطانية فى مصر حينما صدرت طبعته الأولى (١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م) .

فأعيد طبعه للمرة الثانية (١٣٣٧ هـ — ١٩١٩ م) ولكن السلطات البريطانية

الحاكمة فى مصر وقفت له بالمرصاد فمنعت كذلك تداوله . ولم يتأثر الإمام المجدد بهذا المنع ، لأنه كتبه ابتغاء مرضاة الله وحده ، ولم يستهدف بكتابته دنيا .

وقد أعاد الإمام الممتحن السيد أحمد ماضى أبو العزائم رضى الله عنه طبعه للمرة الثالثة فى شهر ذى القعدة (١٣٧١ هـ الموافق يولية ١٩٥٢ م) . ولكنه فى هذه المرة لم يمنع لأن السلطات البريطانية قد بدأت فى الرحيل عن مصر ، وما أن ظهرت الطبعة الثالثة حتى نفدت رغم عدم الإعلان عنها .

وقد أعادت دار المدينة المنورة طبعه للمرة الرابعة فى شهر ربيع أول ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

واليوم نقدم الطبعة الخامسة ـــ بعد أن تقلص نفوذ الاستعمار عن معظم الدول الإسلامية ـــ لمن يريد أن يعرف الحق حقا فيتبعه ، والباطل باطلا فيجتنبه ، أما المستشرقون الذين يعرفون الحق ، ولكنهم يُعرضون ابتغاء متاع الدنيا فلا نطمع فى إقناعهم ، والله يتولى هداهم إنه سميع الدعاء والله ولى الأمر وحده وإليه المآب .

شيخ الطريقة العزمية
السيد عز الدين ماضى أبو العزائم
المحامى بالنقض

دار الكتاب الصوفى
فى يوم الإثنين
٢٩ ربيع الآخر ١٤١٣ هـ
٢٦ اكتـــوبر ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

التماس الطبعة الأولى

للإمام الممتحن السيد أحمد ماضى أبى العزائم

الحمد لله الذى أظهر فى غياهب ظلمات هذا العصر أنوار آيات فضله العظيم كما يطلع الكوكب فى غياهب الليل البهيم . له الحمد وله المنة على مالا يحصى من النعماء وما يتوالى بإحسانه من الآلاء ، أكرم أمة خاتم أنبيائه صلوات الله وسلامه عليه بحفظ أنواره وبقاء أسراره وتجدد المنن الربانية معجزة لحبيبه ومصطفاه ﷺ لبيان المحجَّة وإقامة الحجة رحمة بمن جعلهم خير أمة أخرجت للناس ، ومزيد فضل منه سبحانه وتعالى يمنحه ليظهر الحق ويمحو الإلبَاس . والصلاة والسلام على خاتم الرسل الكرام الذى أنزل الله عليه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[1] والقائل ﷺ : « لا تزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتى قَائِمةٌ عَلى الحق لا يَضُرُّهُمْ من خالَفهُمْ حَتَّى يأتِىَ أمرُ الله وهُمْ على ذلك » والقائل صلوات الله عليه « واشوقاهُ لإخوانى الذين لمَّا يأتوا بعد ».

وبعد فإن الله سبحانه وتعالى تفضل علينا فى هذا العصر بمن منحه الله الحكمة والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [2]فالخير الكثير من الله تعالى لا يدركه إنسان بعقله ، فما هو ثناؤنا بعد ثناء الله على من آتاه الله الحكمة ؟ فله الحمد وله المنة وله سبحانه الشكر والثناء الجميل ، حيث أكرمتنا بوجود من منحته حكمتك فزكت به نفوسنا وطهرت به قلوبنا ، وقد جدد الله به ما خفى من أمر ديننا فى كثير من الأمور ، خصوصاً ما وضعه فى مؤلفاته مما هو ذخر للعالم الإسلامى ، وهو سيدنا ووالدنا الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم رضى الله عنه ونفعنا بعلومه ، وهذه الرسالة آية كبرى من آيات الله الساطعة لمن أراد الحق حقاً فيتبعه والباطل باطلا فيجتنبه . وليست بأول كرامة من كرامات سيدنا ومولانا رضى الله عنه ، فإن الله قد أكرم المجتمع الإسلامى خاصة والإنسانية عامة فى هذا الزمان به حتى أظهر من عجائب آيات الله وغرائب حكم الله ما جدد به آثار السلف الصالح وأحيا به مناهج أئمة المرشدين وبين به للسالكين سبل رب العالمين .

---

(١) سورة آل عمران آية ٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

مقدمة

الطبعة الأولى

١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م

الحمد لله الهادى لأقوم سبيل ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى بشرت به صحف الرسل الكرام ، صلى الله عليه وعلى آله والتابعين لهديه آمين .

وبعد : فيقول عبد الله (محمد ماضى أبو العزائم) إنى منذ كنت طالباً بدار العلوم كنت شديد الرغبة فى تحصيل علوم الحكمة ، وكنت أصرف وقت الفراغ فى صحبة رجال هذا العلم ، ودعانى هذا الشوق إلى البحث والتنقيب فى أصول الأديان والملل والنحل ، وكان رأس مالى إذ ذاك العلم وميل النفس للنفع العام . فبذلت النفس خدمة لدينى ووطنى ، وهجرت ملاذى حتى كنت أنسى مالابد لى منه من الطعام والنوم ، خدمة للدين والوطن ، فى زمان لم يكن فيه من يقوم بهذا العمل الجليل أحد من إخوانى المسلمين فى بلادنا .

وكان أكثر أهل وطنى لا يقدرون هذا الأمر حق قدره ، وكان يتردد علىّ كثير من علماء الإفرنج لزيارتى ، وأنا بمختلف بلاد العالم الإسلامى ، ويجتهدون فى أن يسألونى عن أشياء يجهلون حقائقها .

ولما كنت أكره الجدل ، أحببت أن أكتب هذه الرسالة وأسميها : (وسائل إظهار الحق) تتمة لكتاب صديقى الشيخ رحمة الله الهندى ، ولكن القلم كان ينزع كثيراً إلى نفع المجتمع العام الإسلامى خاصة ، والإنسانية عامة .

ولم أرد بكتابتها إلا بيان الحقيقة لدعاة النصرانية ، وتنبيه إخوانى المسلمين لأغراضهم الباعثة على ذلك ، والله تعالى أسأل أن ينفع بها ، ويحفظ دعاة النصرانية من التعصب إلى غير الحق عند مطالعتها ، ويمنّ على إخوانى المسلمين بالسكينة والاعتصام بالكتاب والسنة ، ليعيد الله لنا المجد والعز الذى بشرنا به فى القرآن المجيد بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، إنه مجيب الدعاء آمين .

---

(١) سورة المنافقون آية ٨ .

الحيـــاة

بيان أن الإنسان هو النوع الوسط :

الحياة إما حياة حيوانية صرفة ، أو حياة مَلَكِيَّة خالصة أو حياة مزدوجة منهما وهى الحياة الإنسانية ، هذه مسألة بديهية . فإن القادر الحكيم سبحانه جعل حياة للدنيا فقط وهى حياة الحيوانات ، وحياة للدار الآخرة وهى حياة الملائكة ، وحياة للدنيا والآخرة وهى حياة الإنسان . فكان الإنسان هو المقصود من بقية الأنواع لأنه النوع الوسط ، وهو الذى يصدق عليه أنه المخلوق المؤهل لنيل السعادتين ، وأنه يحيا حياتين : حياة دنيوية ، وحياة أخروية . وهاتان الحياتان إما أن تكونا فى رغد وسعادة ، أو إحداهما حياة سعيدة والأخرى حياة عناء وشقاء ، أو كلا الحياتين فى شقاء عناء .

أما الحياة الأولى : وهى الحياة الدنيا ، أو بعبارة أخرى هى الحياة الجسمانية . هى الحياة التى يكون الإنسان فيها لا يشعر بحياة الضمير ولا بلذة النفس الطاهرة ، بل يكون منصبا بكليته على الملاذ الحسية من المأكل والمشرب والمنكح ، وما يعين عليها ، غافلا عن حياة النفس الطاهرة ولذتها الحقيقية ، لا يبالى إذا نال حظه ولذته أهلك غيره أم نفعه ، وتلك الحياة يكون الإنسان فيها حيوانا بل أضل سبيلا أو شيطانا بل أشر عملا . ومسكين الإنسان لا ينال حظوظه وشهواته الجسمانية إلا بكدّ وعناء وربما لا ينالها ويقع فى البلاء والآلام ، ثم يأتى يوم القيامة وقد سجّل عليه أن يكون من أهل جهنم فيحرم المسكين خيرى الدنيا والآخرة . فإذا منّ الله عليه وجعل له نورا يذوق به لذة حياة الضمير وحلاوة الحياة الروحانية ، وانكشف له قبح الملاذ الحسية وآلام الحياة الحسية المجردة عن لذة النفس بحياتها الروحانية كان إنسانا كاملا بمعناه ، متلذذا بنعيم الحياتين متنعما بخيرى الدنيا والآخرة .

كمال الإنسان بقهر ملاذه الحسية والإقبال على كمالاته الروحانية :

مما لا يشك فيه إنسان أن لذة الضمير وبهجته تفوق جميع الملاذ الحسية ، والفرح الذى يحصل لفاعل الخير الحقيقى ، أو للعامل فى النفع العام ، فوق الفرح بنيل كل الملاذ الحسية .

نعم إن الإنسان خلقه الله ليحيا الحياتين ، وأهّله ليكون فى مقعد صدق عند مليك

مقتدر ، تخدمه الملائكة الروحانيون . ولكنه مع هذا فإن الحكم العدل أودع فيه من قوة الحظ والأمل وحب البقاء والأثرة ما ينسيه نعيم الآخرة وعذابها وفناء الدنيا وزوالها وما هو مؤهل له من الخير الحقيقى والنعيم الأبدى ، وبالفضل الإلهى هداه النجدين وهداه السبيل ، فجعل له عقلا يعقل ، وبعث الرسل تبين له سبيل السعادة وطريق الخير . فإذا جاهد الإنسان هواه وحظه ونفسه وهى جيوش غالبة قاهرة وملوك جبابرة ظلمة ونصره الله على أعدائه ، صار هواه مع الحق وحظه ما عند الحق ، وزكت نفسه ، وجعل الله له نوراً يمشى به فى الناس على الصراط المستقيم ، الذى هو أقرب طريق يوصل إلى المقصود ، بل السالك عليه يكون آمناً على نفسه وماله وأهله ، منعماً بعيشة طيبة روحانية ، متمتعا بلذة الحياتين ، ونعيم النشأتين ، وخير الدارين ، متمتعاً بكل شهواته الجسمانية من وجهها التى لا تحجبه عن شهود مآله .

الإسلام يأمر بخيرى الدنيا والآخرة :

يظن الإنسان المسكين أن الإسلام يقيده عن ملاذه ويحبسه عن شهواته ، ويحرمه مما هو خير له فى دنياه ،وظنَّ السوء لجهله .

الإسلام إنما نهاك عما يضرُّك ، وأباح لك كل ما ينفعك ، وحظر عليك ما به نكد العيشة وضياع الخير وفقدان المسرات ، وأنت أيها الإنسان لجهلك بالإسلام تظن أنه حرم كل طيب ، وأن الإنسان لا تطيب حياته ولذته إلا إذا ترك العمل بالدين ، وليتك قبل أن تحكم ترويت وتمسكت بقوله تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[1] لعلك تشتاق أيها المسلم إلى أن تعلم ما أمرك به القرآن الكريم ، ومانهاك عنه فاسمع يا أخى :

أمرك القرآن الكريم بما به تكون كبير النفس عن التشبه بما دونك من أنواع الحيوانات ، رفيع القدر عن أن تكون عبداً لشهواتك وحظوظك ، علىَّ المنزلة عن أن تعظِّم غير ربك أو ترضى بغير حكمه . أمرك القرآن الكريم بما به تكون عاملا من عمال الله بما يحبه الله تعالى وترضاه النفوس الطاهرة الزكية فتكون خليفة عن ربك سبحانه ، لا ترى لأحد عليك نعمة إلا الله تعالى ، وتقوم فتعمل لنفع إخوانك وخيرهم أمرك بما به تشعر من نفسك أنك عضو عامل نافع ، تأنف أن تقلد غيرك ، أو تكون عالة على غيرك أو يسبقك غيرك إلى فضيلة من الفضائل . أمرك القرآن الكريم أن تكون عزيزاً بالله ،

(١) سورة النحل آية ٤٣ .

ذليلا له سبحانه ، لا تنتظر خيراً إلا منه سبحانه باستعمال عقلك وجوارحك فيما خلقت له من العمل النافع . ولا تخاف أحداً إلا الله مادمت عاملا بما أوصاك به . أمرك القرآن الكريم بالتوحيد الذى لا يقبل العقل غيره ، ولا تطمئن القلوب بغيره . وأن كل من سوى الله عبيد مقهورون ، وخلق مربوبون ، وأكرمهم عند الله التقى العامل بوصاياه سبحانه .

عقائد الأديان التى تلبس أهلها الذل والهوان :

فالعقيدة التى أمرك بها القرآن الكريم جعلتك عظيما كبيراً وأشعرت قلبك العزة وأذاقتك حلاوة المجد . وكيف لا ؟ وأنت لا ترى العزة والعظمة والكبرياء والجلال إلا لربك الواحد القهار سبحانه . وترى كل من سواه عبيداً لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله . وكل عقيدة من عقائد أهل الأديان الأخرى تلبس الإنسان الذل والخزى والهوان ، لأنه قد يرى الحجر معبوداً له ولا خسة أخس ممن يرى الجماد معبوداً له . ومنهم من يرى إنساناً مثله إلهاً معبوداً ويدين له بالذل والهوان . ومنهم من يعتقد أن إنساناً حل فيه الإله ، أو أنه من الإله بالولادة ، أو أنه جزء مجموع الإله ، وكفى بذلك الإنسان خزياً أن تذل نفسه الكريمة ، ويفقد شعوره بعظمة نفسه ، ويجهل مكانته من العالم ومرتبته من الكون ، حتى يصير أذل فى عينه لنظيره من الحيوان الأعجم ، فإن الحيوان لم يذلَّ للإنسان إلا بالقوة القاهرة من أليم العذاب وشديد القيود ، ولكنك ترى الإنسان الذى خلقه الله تعالى بيده وجمَّله بالعقل والفكر ، يذلُّ لنظيره أو لما هو أدنى من نوعه ، ذلَّ عبودة وعبادة ، وقد يذلُّ لعضو من أعضائه فيكون عبداً له ، كمن صرف كل قواه الفكرية فى نيل شهوة بطنه أو فرجه ، أو شهوة أذنه بسماع الثناء والمدح ، أو شهوة عينه بالخشوع له من نظرائه ، أو شهوة لسانه بنفوذ الكلمة ، فيكون عبداً من أحقر العبيد ومن أذلِّهم ، لأن تلك الأعضاء إنما خلقها الله لتخدمه وتنفعه لا لتسخره لها ، هذه هى العقيدة التى أمرنا القرآن بها .

مقارنة بين العقيدة الإسلامية وغيرها :

العقيدة كما تعلم وفقنى الله وإياك لما يحب ويرضى هى رأس المال فى الدنيا والآخرة والأصل الذى إذا عقدت قلبك عليه كنت آمناً يوم الحساب ، فلو أنك فكرت يا أخى بعقلك ورويتك ، لعلمت حق العلم أنه لا خير للمسلم إلا بالتمسك بدينه ، ولا خير لغير المسلم إلا بترك دينه . ونعم ، لأنك أيها المسلم تمسكت بدينك أولا فصارت لك

العزة ، ومكن الله لك فى الأرض حتى مالت لهيبتك التيجان ، وانحنت لك ظهور ملوك الأرض . ثم تركت العمل بدينك ، فأصبحت ذليلا بعد العز ، فقيراً بعد الغنى ، جاهلا بعد العلم ، سفيهاً بعد الحلم ، وتمسك من كانوا يستظلون بظلك ويستضيئون بنورك بما أمرك به القرآن مما تركته أنت ، وتركوا دينهم وراء ظهورهم ، فسادوا وعزوا .

فتأمل أيها الأخ ما حل بك بترك أحكام دينك وما ناله الأمم بترك دينهم . تركوا دينهم فسعدوا وملكوا ، وتركت دينك فحصل لك الهوان والذل وصرت مملوكا بعد أن كنت ملكا ، وتظن لجهلك بأحكام دينك ووصايا ربك أنك لا تسود إلا بترك الدين وراء ظهرك تقليداً بمن كانوا لك أتباعاً وأصبحت لهم تبعاً .

عزة المسلم فى التمسك بدينه :

تنبه أيها المسلم من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، فما تأخرت إلا بترك أحكام دينك ، وما تقدم القوم إلا بترك أحكام دينهم ، هل دينك أمرك بالرهبانية ؟ لا . أمرك بالفرار إلى الصحارى والغابات ؟ لا . هل دينك قال : الغنى لا يدخل الجنة ؟ لا . أمرك الدين بالعمل للدنيا وجعل جميع القربات والعبادات لا تقوم إلا بالأموال والعلوم والصناعات والحرف والزراعات والتجارة . فبعيشك ما الذى فهمته من الدين يجعل المسلم عالة على غيره ، أو يده سفلى تحت يد غيره ، أو كلمته دون كلمة غيره ؟ اقرأ القرآن وانظر فيه نظر مفكر ، تعلم حق العلم أن السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة لا تكون إلا باتباع القرآن . وليس الإسلام هو ما يعمله المسلمون الآن ، وإنما الإسلام ما أنزله الله فى القرآن ، وبينه لنا رسول الله ﷺ ، وما قام به الخلفاء الراشدون والأئمة الهداة المتقون .

أنت أيها الناظر بعين رأسك إلى ماعليه المسلمون الآن معذور من جهة ، ومؤاخذ من جهة أخرى . أما عذرك فلأنك ترى جماعة أهل الدين فتحكم على الدين بعمل أهله ،أما الجهة التى تؤاخذ بها فلأن أحكام الدين ووصاياه وأعمال الأئمة الراشدين والسلف الصالح من المتقين لا تزال محفوظة من عبث العابث ، ومن تحريف المبطلين وفساد الغالين . فعليك بالاطلاع على تلك الحكم والأحكام والوصايا ، تر أن الأمم التى سادت نالت سيادتها بالعمل بوصايا الدين الإسلامى ، وليس الأمر ببعيد عنا .

زخرف بنى الأصفر مقتبس من سير الأئمة الراشدين :

هؤلاء بنو الأصفر لم ينالوا الزينة فى تلك الحياة الدنيا والعلو فى الأرض ، إلا بعد أن

تعلموا سير الأئمة الراشدين ، وعملوا بما كان عليه الخلفاء من السلف الصالح ، ووضعوا نظاماتهم وتشبهوا بهم ، وتركوا كل أحكام دينهم وتعاليم الكنائس . وربما يقول لك قائل : إنهم لم يتقدموا إلا بعد أن تركوا تعليم الكنائس وتمسكوا بالإنجيل . وسبحان الله كيف تحجب الشمس ضحوة فى السماء الصافية !! الإنجيل بين أيدينا . أى آية فى الإنجيل تحث على العمل للدنيا ، أو تأسيس ملك ، أو تنظيم مجتمع ، أو وضع قوانين لحفظ المساواة والعدل ، واستتباب الأمن بين المجتمع حتى تجول الأفكار جولة بحث فى كشف أسرار الكائنات والانتفاع بخواصها ؟ أى آية فى الإنجيل أمرت بجمع المال أو الاشتغال بالصناعات والفنون والتجارات والزراعات ؟ وقد فصل الدنيا عن الدين بـ : (إعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله) . لم يكن ذلك كله إلا بالقرآن المجيد ، ولم يتنبه العقل للبحث فى الكائنات والتنقيب وراء خواصها وإظهار أسرارها ، عملا بأمر الدين وقربة لله سبحانه إلا بالقرآن المجيد .

بالقرآن تنبه العقل للبحث فى الكائنات :

أنا لا أشك أن فى الإنسان فطرة للفكر فى الكائنات بالبحث عن خواصها ، ولكن لم يكن ذلك بأمر دين من الأديان . وكان القائم فى كل زمان نابغة ينبغ فى الأمة فلا يكاد يجول بفكره جولة فيما حوله من الأنواع ، إلا ويعادَى ويقتل أو يطرد ،حتى صار عمل الفكر شرعاً وواجباً من واجبات الدين ، فانكشفت أسرار الكائنات وظهرت خواصها بالتجارب العملية لا بالحكمة النظرية فقط ، واخترع الإنسان مالم يكن يسبق له . وما من مختَرَع اخترعه الإنسان إلا وكان الفضل فيه للقرآن المجيد ، سواء كان المخترِع مسلماً أو غير مسلم . ولا يصعب عليك أن تقرأ تراجم علماء بغداد والشام والأندلس ومصر والعراق ، خصوصاً علماء الحكمة العالية وعلماء الطب وعلماء الكيمياء وعلماء الصناعات . ولو لم يكن إلا أن المسلمين فتحوا أبواب البحث والعمل لقوم دينهم خراب الدنيا حتى أقبلوا على العمل بما تلقوه عن المسلمين ، لكان ذلك جديراً أن تكون المدنية والحضارة منسوبة لرجال المسلمين .

حياة المسلم

المسلم : إما أن يكون منفرداً ، أو فى مجتمع منزلى ، أو فى مجتمع مدنى .

أولا ـــ حياة المسلم منفردا

لابد للمسلم من أويقات فى كل يوم يخلو فيها بنفسه ، وحياته فيها أن يعرض أعماله على نفسه ، فإن وجد خيراً وكمالا وفضائل شكر الله تعالى بالعمل لمزيد الوسائل التى بها يكون على مزيد من هذا الخير إن بعلم أو بعمل فى نفع عام ، كاختراع مابه نفع المسلمين ، أو عمل خاص كالفكر فيما يصلح به شأن أفراد عائلته وأهل محلته ، من تزكية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم وإصلاح ذات بينهم ، أو بحثاً عن سنة من سنن السلف أبدلت ببدعة يقوم مجدداً لها بحكمة أو ينظر بعيون فكره فيما حوله من الآثار الدالة على قدرة القادر وحكمة الحكيم ، وعلى أن الذى أبدعها واحد لا شريك له ، ثم ينظر فى نفسه مفكراً فيما فيها من الآيات والحكم والأسرار والمنن فيسبح الله ويذكره شاكراً ويقبل على ما يقرب منه مسارعاً . أو يستريح بالنوم ، معتقداً أنه إنسان عاجز ضعيف لا يدرى لعل الذى وهب له الحياة يسلبها منه عند النوم ، أو الذى منّ عليه بالعافية يجرده منها . فينام فارغ القلب من الشحناء ، ومن قصد الشر لإخوته المؤمنين ، ومن مكر السوء ، ويشغل فكره بالابتهال إلى الله أن يجعل روحه عند فترة أعضائه تسبح فى ملكوته الأعلى ، وتشهد من بديع آياته ما ترجع به إلى الجسم من البشائر والمسرات ، فإذا استيقظ من نومته نظر بعين قلبه أنه كان ميتاً ، لأن النوم موت صغير ، وقد رد الله عليه حياته وعافيته وجوارحه فضلا منه وكرماً وجوداً منه وإحساناً ، فيشكر الله تعالى بعمل الخيرات : إما بصلاة يصليها ، أو بقربات يتقرب بها إلى ربه بعفو عن مسىء وإحسان إليه ، أو بصلة لمن قطعه ، أو ببر أو بإكرام جار أو ضيف أو برحمة أتباع أو حيوانات ، أو يسعى فى عمل خير يقربه من إخوته المؤمنين ، أو بكلمة حق عند ذى سلطان ، أو بذل فضل جاه أو علم أو مال أو عافية أو ظهر دابة أو مسكن ، أو منيحة من أرض يعين بها الآخر .

وللخلوة أعمال خاصة بالقلوب يعملها المسلم السالك بها حياته منفرداً ، وبها لذاته الحقيقة فى الدنيا وسعادته الكاملة فى الآخرة . ومن ادعى أنه مسلم ولم تكن حياته منفرداً كما بينت فهو مسلم ناقص عند العلماء ، لأن المسلم هو الذى سلم لله ورسوله نفسه ، بحيث لا يعمل عملا من الأعمال إلا وهو عالم بحكمه شرع وبكيفيته سنة

والمسلم الذى يجهل حياته فى الخلوة يجهل أصلا عظيما من أصول الدين ، وهو الإخلاص لله فى السر والعلن ، ومراقبة الله فى الخفاء والعلانية ، واعتقاد أنه سبحانه وتعالى مع كل إنسان حيث كان الإنسان ، وعالم بأحواله ومطلع على خفى ضميره كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[1] وكما قال سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[2] وكما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[3] وكما قال سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[4] ومتى يكون الإنسان مسلماً إذا كانت حياته منفرداً حياة شيطان خبيث ماكر ، أو خنزير سفاد ، أو ثعلب ختال؟ أقول ليس بمسلم لأن الله تعالى قال : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ ﴾[5] .

وليس المسلم من يخشى الناس والله أحق أن يخشاه ، إنما المسلم من يخشى الله فى السر والعلانية ، ويراقبه فى الخلوة أكثر مما يراقبه أمام الخلق . وأما المسلم الذى يتجمل للخلق ، فإذا خلا بنفسه لا يبالى بغضب ربه عليه ولا بمقته ، وقد شنع الله على من كان كذلك وحكم عليه بأنه منافق وجعل مآله إلى الدرك الأسفل من النار ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾[6] وقال سبحانه : ﴿ يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللهَ إِلاَّ قَلِيلًا ﴾[7] . فالمسلم حقيقة فى خلوته يمدُّ بروح ملكيته ، والمنافق الذى يدعى الإسلام قرينه فى خلوته شيطان خبيث ماكر ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً ﴾[8] وقال تعالى فى المسلمين : ﴿ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[9] ، وخير جليس المسلم فى خلوته كتاب الله تعالى ، الذى هو شفاء ونور ، وكتاب رسوله ﷺ ، فكتب سير الصحابة رضوان الله عنهم ، والأئمة الهداة المخلصين ، أو ذكر أو فكر .

---

(١) سورة الحديد آية ٤ .
(٢) سورة طه آية ٧ .
(٣) سورة ق آية ١٦ .
(٤) سورة غافر آية ١٩ .
(٥) سورة البقرة آية ٣ .
(٦) سورة البقرة آية ١٤ .
(٧) سورة النساء آية ١٤٢ .
(٨) سورة النساء آية ٣٨ .
(٩) سورة الرعد آية ٢٨ .

ثانياً ـــ حياة المسلم المنزلية

الواجب على المسلم لأفراد عائلته :

المسلم فى منزله كما أوجب الله عليه أن يسعى فى طلب الرزق للنفقة على نفسه وغيره قياماً بالواجب شرعاً . فقد وجب عليه من جهة أخرى ، أن ينفق عليهم ما به يغذى نفوسهم ، ويطهرها من لفسها بحسن التربية ، والمعاملة والملاحظة والتعليم والتأديب ، حتى يكون إماماً يقتدى به جميع أفراد عائلته ، فيتحرى أن يكون إماماً للخير ، دالا عليه أمامهم ، فاعلا له . ويتعدهم بالنصائح والوصايا المفيدة فيلقيها عليهم علماً بعد أن يشهدها لهم بنفسه حتى يجعل زوجته تتجمل بفضيلة العفة والاقتصاد والرحمة بوالديه وأقاربه والمحافظة على أخلاق أولادها والعمل بالسنة . بذلك يكون كأنه حصَّنها بحصون منيعة من كل ما يشين أو يعيب ، ويعامل أبناءه معاملة تجعل نفوسهم تنمو على حب الفضائل والكمالات ، فيتعودون الصدق والأمانة والشجاعة ، ويبث فيهم الرحمة بأرحامهم وأقاربهم ، والعاطفة على الضعفاء والمساكين وعلى الجيران والأصدقاء ، ويجتهد أن لا يعمل عملا قبيحاً أو يقول قولاً قبيحا أمامهم ، فإذا اقتضى الحال أن يحصل منه ماليس ممدوحا شرعاً من سوء نية أو قبيح عمل ، فليخف ذلك عنهم بقدر استطاعته ، فإنما الولد مرآة للوالد تنطبع فيه أعماله وأحواله . وبذلك يكون المسلم فى المجتمع المنزلى كأنه يكنز كنوزاً لنفسه بتربية أبنائه وزوجته ينتفع بها إن طال عمره فى عاجلة دنياه ويسعد بها إن انتقل إلى الدار الآخرة ، لأنه إن طال عمره نفعه الله بأولاد بررة أتقياء فكانوا له عافية إن فقد عافية ، وقوة إن فقد قوة ، ومالاً إن فقد مالاً ، وراحة للقلب والبدن ، وخيراً للأهل والأقارب ، وإن مات كتب الله له كثواب أعمالهم التى تلقوها عنه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، فكانت التربية الإسلامية للولد سعادة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة .

سير المسلم مع خوله وأتباعه :

المسلم فى حياته المنزلية مع خوله وأتباعه ، كأنه أب رحيم وأخ كبير كريم ، فهو أبوهم عند الإنفاق عليهم وملاحظة شئونهم ، وأخوهم الكبير عند قيامهم بما ألزمهم من الأعمال فتكون يده مع يدهم ، ولسانه مع لسانهم ، يتعاونون على العمل سواء ، لا يمتاز عنهم بمأكل ولا بمشرب ولا بملبس ، ويرى نفسه أنه واجب عليه الشكر لله تعالى . لأن الله سبحانه خوله نعماً وسخر له أناسىّ من إخوته المؤمنين ، وجعل له السلطان عليهم والسيادة ، فيشكر الله بعمل الخير فيهم وببذل المعروف لهم وبإنزالهم

منزلة نفسه يمنحه الله المزيد فى الدنيا والسعادة فى الآخرة .

وكل مسلم كانت حياته المنزلية مع والديه وزوجته وأولاده وأرحامه وحشمه حياة الجبارين الذين قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾[1] فليس بمسلم عند العلماء وهو أشر على المجتمع من الشيطان ، لأنه يفسد المجتمعين معه فى المنزل ، فيكون كمرض معد نعوذ بالله منه . وليس المسلم من كان أبوه مسلماً وأمه مسلمة ، إنما المسلم من عمل بشرائع الإسلام ، وتخلّق بالأخلاق الإسلامية ، وتجمّل بجمال المعاملة الإسلامية .

ثالثا — حياة المسلم فى المجتمع المدنى :

هى الحياة المقصودة بالذات ، ولأجلها كانت التربية والعناية ، وهى الحياة التى بها تكون السعادة فى الدنيا والفوز فى الآخرة ، بل هى الحياة التى تقام بها حدود الله وتعلو بها كلمة الله وتحفظ بها سنن رسول الله ﷺ . نعم وهى الحياة التى بها تتجمّل الأرواح بمشاهدة أسرار مبدعها والنفوس بعلم آيات خالقها ، والأشباح بالنعم المفاضة من الرزاق الوهاب الكريم ، نعم وهى الحياة التى تنبعث منها أنوار المعارف ، ويفاض منها غيث البركات والخيرات على جميع المجتمع الإسلامى ، هى الحياة التى إذا كملت معانيها وصحت مبانيها ، كان لكل مسلم عزة من الله وكنز من اليقين وذخر من العمل الصالح ، وحصن أمن من الذل لغير الله أو الاحتياج إلى شرار خلق الله . هى الحياة التى يكون فيها القرآن حاكماً والسنة المحمدية حصون أمن ووقاية . هى الحياة التى تطمئن القلوب فيها على الدين والعرض والنفس والمال ، فتصير فارغة من كل شاغل يكدر حياتها ، ويعمل كل فرد لخير المجتمع بقدر طاقته ، فإذا اختل نظام المجتمع المدنى ، أصبح العز ذلا والغنى فقرا والاجتماع تفرقة والقوة تخاذلا ، وأصبحت القلوب متنافرة ، وصار الباطل حاكما والحق خفيا . أسأل الله تعالى أن يوقظ قلوب إخوتى المؤمنين وينشطهم لتجديد الحياة الطيبة فى المجتمع المدنى . وليس الأمر بخفى على العاقل فأقيم عليه برهاناً يجليه له ، ولا نتائج الاهمال فيه بمحجوبة عن الناظر البصير ، فأكشف له عنها الحجاب ، ولكن الأمر جلى لمن له ذرة من الفكر والعقل .

حياة المجتمع بحياة أفراده :

حياة المسلم فى المجتمع المدنى كحياة العضو من الجسد مع كل عضو آخر ، ولكل عضو من الجسد عمل خاص به لو أهمله لفسد الجسد ، وكذلك كل مسلم فى المجتمع ،

(١) سورة الصافات آية ١٣ .

المدنى مطالب بحقوق وواجبات عليه خاصة به لا يقوم بها غيره فى هذا المجتمع ، لو أهمل فيها لكان هذا سبباً لفساد هذا المجتمع وكان عليه كإثم هذا الفساد بأجمعه ، قال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعاً ﴾[1] . ليس الواجب على كل فرد من أفراد العائلة كالواجب على كل فرد من أفراد المجتمع المدنى ، لأن الإنسان إذا تهاون فى الواجب فى المجتمع العائلى يكون قد أضر بعائلته ، وليس من أضر بعائلته فى الإثم كمن أضر بمجتمع عظيم .

سقطة الفرد فى المجتمع المدنى زلة للمجتمع :

الفرد فى المجتمع العائلى قد يخطىء فى عمل جزئى فيقوم بقية أفراد العائلة يوقظونه ويؤدبونه فيرجع ، ولكن العضو فى المجتمع المدنى إذا تهاون فى واجباته ربما فتح باباً من أبواب الشر على جميع المجتمع . وليست سقطة الإنسان فى المجتمع المدنى كسقطته فى المجتمع المنزلىّ ، وإن كان المجتمع المنزلىُّ أساس المجتمعات فإنه كمدرسة علمية يكون فيها العضو عاملا يتلقى الإرشادات من أستاذه رئيس العائلة ، ولكنه فى المجتمع المدنى يكون عاملا ويكون أستاذاً فى آن واحد ، فلو زلَّ ربما أدَّت زلته إلى زلَّة المجتمع !! كل إنسان فى المجتمع المدنى عليه حقوق واجبة يجب عليه أن يشدِّد فيها محافظاً على نفسه وإخوته معتقداً أنه لو أهملها أضر بنفسه وبإخوته . فالصناع يحفظون ثغورهم ، والزراع كذلك ، والتجار كذلك ، والعمال يقومون بما عليهم ، والجند يقفون موقف الدفاع مطيعين للأمر ، لا يشتغلون بشيء غير تمرين قواهم البدنية ، وشحذ قواهم الفكرية على الحيل الحربية وفنون الجهاد ، متباعدين عن الترف والمجالس العامة ، التى تجمع أهل الترف وأهل النعمة وأهل البطالة الذين ورثوا الأموال ولم يوفقوا لحفظها ونموها ، وأضاعوا أوقاتهم فى قول لا عمل يعقبه ، فإن ذلك يخمد جمرة حماسهم ويضعف قوة جرأتهم ، ويرغبهم فى الترف والشهوات ، والمنافسة فى الرياسة والوظائف والملك . وعلى العمال أن يحفظوا ثغورهم مجدين فيما يجلب الخير للمجتمع ويدفع الشر عنه .

صلاح الأمراء والعلماء صلاح للمجتمع كله :

أكبر مسئولية فى المجتمع المدنى على طائفتين من الناس : الأمير ومن والاه من قضاة وولاة وشرطة وحاسبين وغيرهم . والعلماء ، ومن يتبعهم من الدعاة إلى الخير ، فإن

(١) سورة المائدة آية ٣٢ .

زلل الصناع والعمال والتجار والزراع يضر أولا وبالذات فى الدنيا ، ويتبع ذلك الضرر فى الدنيا الضرر فى الدين ، لأن التجار والزراع والصناع والعمَلة إذا أهملوا ضعفت قوة المجتمع وقلت عدده ومدده ، وبذلك يقوى الأعداء . وأما الأمير ومن والاه والعلماء ومن اتبعهم ، فإن زلة الواحد منهم ضياع للدين وفساد للدنيا ، فهم المطالبون بأعظم المسئولية ، وهم المحتاجون — وخصوصاً الأمير — إلى النصيحة من كل مسلم بطرقها الشرعية الأدبية ، ولا تكون النصيحة إلا عن قلب مخلص للأمير ومن والاه ، عالم بقدر الخير الذى ينال المجتمع بصلاح حالهم فى الدين والدنيا ، والشر الذى يحصل فى المجتمع بفساد حالهم . وقد بين الواجب على الإمام ومن والاه ، وعلى التجار والزراع والصناع والعمال والعلماء فى كتب الفقه ، فراجعها إن شئت .

لا أشكُّ أنى بقولى : إن كل فرد من المسلمين فى المجتمع المدنى عضو عامل ، يكفى فى فهم تفصيل هذا المجمل ، إذ كل عضو يعمل لخير البدن كله ، لأن البدن إذا حصل له الخير سرى الخير منه لكل عضو ، وكذلك كل مسلم يجب عليه أن يعمل لخير المجتمع الإسلامى ، فإن المجتمع إذا حصل له الخير والسعادة والعز سرى منه الخير لكل فرد من أفراد المسلمين ، أين كان ذلك الفرد ، وكيف كان ، وعلى أى حال كان .

وليس الأمر بخفى عليك أيها الأخ البار ، ولو نظرت بعين رأسك لرأيت أفراداً من أمم أخرى يعظمون بيننا ! هل لأن لهم أكثر من عينين ومن رجلين ومن يدين ومن لسان ؟ لا ، أو لأنهم أوسع علماً وأشرف نسباً وأكبر مالا ؟ بل لأنهم أفراد من مجتمع يعمل كل فرد منه لخير المجتمع عملا بوصايا الدين الإسلامى الذى تركها أهله . وكذلك إذا أحيا الله عقولنا ونفوسنا بتلك الوصايا الإسلامية ، وجمَّلنا بتلك الخلال الشرعية ، أصبح الولد الصغير منا فى أى أمة من الأمم كبيراً عظيما يؤخذ برأيه . ولا سلم للرقى إلى هذا المقام العلى إلا بالعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وتربية الأبناء على الأخلاق الشرعية ، وعلم سير أسلافهم الصالحين ، وتعليمهم العمل على سير أئمتهم السابقين .

وإنما يكون المجتمع المدنى بمعناه حقيقة إذا كان مهيباً من أعدائه غنيا عن صناعات الأمم الأخرى ، لا يحتاج إلا إلى المادة التى لم يُقدِّر الله أن يوجدها فى بلاده ، مما هو مادة للآلات والأدوات الصناعية ، فإن اللطيف الخبير الرازق الكريم جعل فى كل أرض خيرات ليست فى الأخرى ليحصل التبادل بين بنى الإنسان والتعارف كما قال تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[1] ، وكل مجتمع لا يحتاج من الأمم الأخرى إلا إلى المادة فهو مجتمع حقيقي . وكل مجتمع يحتاج إلى الأدوات والآلات ، ويفتقر إلى الصناعات ، وليس لديه إلا محصولاته يرسلها للأمم الأخرى لتصنع وتعود إليه ، فليس بمجتمع حقيقة يحفظ الدين والدنيا ، والأولى به أن يكون مجتمع عمال فى غيضة أو منجم .

كيف وبم ومتى يعود هذا المجتمع كما كان ؟

هذا استفهام يحتاج فى جوابه إلى كشف حقائق ربما كانت خفية على كثير من الناس .

الحقيقة الأولى

المدن العامرة قبل الإسلام وأساساتها :

كان للأمم قبل الإسلام مدن عامرة ، مؤسسة على مبادىء القوة ، وكل الفضائل والكمالات فيها تدور على محور القوة ، فكانت فضيلة العدل أن يستعبد القوى الضعيف لينتفع به وينفعه كما ينتفع الإنسان بالحيوانات . والعدل فى الحقيقة هو رأس الفضائل ، ومنه تنتج الكمالات كلها . وكثيرا ما كانت القوة فى جانب أهل الجهالة فيكون المجتمع مجتمعاً جاهلياً . وقد تكون القوة مع أهل الضلالة أو مع أهل الفسوق ، فيكون المجتمع بحسب من تكون معه القوة . ولم نعلم أن رسولا من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم قام متصرفاً مطلقاً فى مجتمع مدنى حتى يؤسس أركان المجتمع على الفضائل الحقيقية التى هى فروع الأحكام الإلهية ، إلا ما هو معلوم فى التوراة من مجتمع بنى إسرائيل مع سيدنا موسى ، وأنت تعلم أنه لم يكن مدنيا بمعناه ، ولا تجهل ما كان عليه بنو إسرائيل مع سيدنا موسى عليه السلام ، واجتماع بنى إسرائيل على عهد سيدنا داود عليه السلام وسيدنا سليمان عليه السلام ، نعم اجتماع بنى إسرائيل فى عهد سيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما السلام يشبه أن يكون اجتماعاً مدنياً فاضلًا ، لأن الحوادث التى حصلت فى هذا الزمن كانت تمنع من أن يكون المجتمع مجتمعاً بمعناه الحقيقى .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

الحقيـقــة الثانيــة

انبلاج أنوار الإسلام بين أمة جاهلية لا عهد لهم بنظام ولا مدنية :

أشرقت أنوار الإسلام فى أفق تلك البلاد القاْحلة ، فأشرق على أمة جاهلية لا عهد لهم بنظام ولا بصناعات ولا بفنون ، بين قلوب متفرقة وأهواء مختلفة وشرور متزايدة ، فما أشرقت أنواره على تلك الهضاب والفيافى والبطاح والروابى ، إلا وأصبحت تلك النفوس كأنها خلقت فى تليد المجد ، أو كأنها رضعت من نعومة أظفارها لبان الفضائل الإلهية ، وتغذت بجمال الحكمة الربانية ، فهبت من موت الجهالة ورقدة الغفلة ، وكأن كل فرد منهم نبى مرسل أو ملك مقرب ، فمحا الله بهم المدن الجاهلية والمدن الضالة والمدن الفاسقة .

من هم هؤلاء الرجال الذين قاموا كالسيل المنهمر الجارف الذى أزال فساد الأخلاق وباطل العقائد ، ومحا الظلم والجور من على سطح الأرض ؟ أملائكة أنزلهم الله من السماء فى صورة أناسىّ ؟ أم رسل أحياهم الله بعد مماتهم فبعثهم فى النشأة الأولى قبل الآخرة لينوروا أرضه بنور عدله سبحانه وحكمته ، ويقربوا عباده إلى فضله ورحمته ؟ لا والله ، ولكنهم كانوا غرقى فى هاوية الجهالة ، وكانت نفوسهم أشر من نفوس الشياطين ، ولكن الأستاذ الذى أنقذهم من الظلمات إلى النور ، والمرشد الذى بث فيهم الروح التى أحياهم الله تعالى بها الحياة الكاملة الفاضلة ، هو الأستاذ الذى لو أدركه سيدنا موسى وعيسى وإبراهيم وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ما وسعهم إلا أن يتبعوه وينصروه . يكون العربى فى أسفل دركات الجهالة ويواجه وجه هذا السيد ﷺ فيقوم من مجلسه وهو على قلب نبى أو قدم نبى ، متجملا بأحوال روحانيات الملكوت الأعلى ، فيقوم من أمامه بعد أن يسمع ما سمع منه صارخا فى قومه ، داعياً لهم إلى الحق كأنه رسول أوحى الله إليه .

سيف الإسلام رحمة الله وبرهان ذلك :

ليس تاريخ العرب بالتاريخ الذى كان منقوشاً على الأحجار فمحى من عليها ، أو مرموزا باللغة العجمية وليس من يقرأه ، ولكنه تاريخ جلى ، يعلم كل عاقل ما كانوا عليه وما آلوا إليه .

عجباً عجباً !! يخرج العربى من جوف مكة فى زمن لم تكن هناك معدات سفر ولا

عوارف حضر ، ولا آلات للنقل ، فيخرج والقرآن فى يمينه ، وحب الخير لعامة بنى الإنسان فى ضميره ، وقليل من القوت والماء على ظهره ، والسيف الذى هو رحمة الله فى يساره ، أقول : رحمة الله ، لأنه فى يد مَن سل وعلى مَن سلط ؟ فى يد إنسان ملأ الله قلبه رحمة ليسوى بين أفراد الإنسان ، وجعل فى قلبه نوراً لينشر العدل بين بنى جنسه ، لا يقصد بذلك أن يقهرهم على اعتناق دينه ، ولا أن يخرجهم من الملك الذى هم فيه ماداموا على مبادئه الشريفة الفاضلة ، من العدل والمساواة والرحمة والشفقة والتعاون والصلة والبر ، لا فرق عنده بين النصرانى واليهودى والصابىء . وها هم أهل الذمة فى كل بلد إسلامية برهان ساطع على أن الأمر كما أقول .

على من سلط هذا السيف ؟ سلط على جبار عنيد يستعبد عباد الله ، وطاغية فاجر عامل لمحو الحق وإظهار الباطل . سبحان الله ! ما للعيون عميت عن الحقائق وهى مجلوة ! وما للقلوب انصرفت عن الآيات وهى مضيئة ! اللهم رحماك . فكأن الإنسان ليس بإنسان ، لأنه أهمل عقله إهمالا جعله يجعل الباطل حقا ويؤيده بأباطيل ، ويجعل الشمس الجليَّة ضحوة مظلمة .

قلت : إن المسلم لم يجعل سيفه فى قهر الناس على اعتناق الدين ، لأن الجمال الإسلامى تجلَّى للعقول الكاملة وللقلوب السليمة ، تجلياً جذبها إليه . ومن رأى الكتب التى ألفت فى تفسير القرآن ، وخدمة الأحاديث النبوية ، واستنباط الأحكام من الكتاب يتحقق أن أكثر مؤلفيها من غير العرب ، وأنهم من عقلاء الأمم وعلمائهم ، الذين جذبهم الحق إليه وقربهم منه ، الذين تجلت لهم أنوار الإسلام فاهتدوا بها إليه ، وظهرت لهم حقائقه فأقبلوا بها عليه . فلما أن باشرت بشاشته قلوبهم تفجرت ينابيع الحكمة منها ، فترجمت بها ألسنتهم . ومن قرأ تلك الكتب يعلم حق العلم أن الذى دعا العالم إلى الإسلام جماله الحقيقى ونوره الجلى .

وإنما كان السيف الإسلامى لمحو الظلم والفسوق والجهالة والرذائل ، وإلا فما لنا نرى أكثر من أسلم من غير العرب هم الذين خدموا الدين بعلومهم وأفكارهم ، وبينوا أسراره وأنواره ، وكشفوا للعقول عن حكمه وآدابه . ونرى من بقى منهم على دينه ممتعين بأملاكهم وأموالهم وخدمهم ، وهم أقل ممن أسلم عقلا وأدنى منهم فكراً ، وأبعد منهم معرفة بأسرار الحكمة .

خرج هذا العربى بعد أن تلقى عن سيد رسل الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، من

مكة مخترقا تلك البوادى القاحلة والصحارى الماحلة ، والجبال الشامخة والبحار المحيطة ، حتى رمى بنفسه إلى الأقطار النائية . فما مر على مجتمع جاهلى إلا جمله بفضائل الإسلام ، ولا على أمة ضالة إلا هداها إلى الحق ، ولا على مدينة فاسقة إلا أرجعها إلى الهداية ، فكان كأشعة الشمس التى تسرى فى الدقيقة الواحدة بسرعة تحير عقل العاقل فى سرعة سريانها ، وفيما تفيضه من الخير من النور والهدى والبيان . فكان رسول الله ﷺ هو الشمس ، وكان أصحابه هم الأنوار المنبعثة من تلك الشمس العلية .

خرج العربى من مكة حتى خاض لجة المحيط ، محيط الظلمات (المحيط الأطلانطيقى) غرباً ، وخرج من مكة حتى سبح فى لجة المحيط الهادى شرقاً ، ونشر النور فى أقطار الهند والصين حتى جبال القوقاز ، ولم تقف به عزيمته حتى أبقى له فى كل وادٍ أثراً لا يزال لسان صدق ، ناطقاً بما للإسلام من الفضل العميم ، ونوراً مبيناً شاهداً بأن الإسلام هو الدين الحق الذى يجب على كل عاقل أن يعتنقه . قام هذا الرسول الكريم ﷺ بين أصحابه ، فنوّر قلوبهم بالحكمة النظرية بما أنزله الله عليه من كتابه المجيد ، وما أوحاه الله إليه من الحكمة والبيان . ثم قام ﷺ بأكمل أحوال الحكمة العملية ، فعمل الأعمال الروحانية والبدنية خالصة للدار الآخرة . والأعمال البدنية للدنيا والآخرة . والأعمال الروحانية والبدنية لخير بنى الإنسان ، فبثَّ ﷺ روح تلك الأعمال فى أرواح سلمت له ﷺ ، وقلوب تخلت من سواه ﷺ ، وآمال تعلقت به ﷺ ، فكانوا صورة كاملة لجنابه صلوات الله وسلامه عليه ، وآية كبرى دالة على أنه خاتم رسل الله وسيدهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وليس بنقص فى الشمس أن يراها الخفاش مظلمة ، وأنكر فضلها البوم والعقارب والأفاعى وأشكالها من الحيوانات المؤذية التى لا تهتدى فى النور المشرق ، وكم من حيوانات تتطيب بالقاذورات وتتغذى منها ، وتموت إذا شمت الطيب ، وكذلك الحيوان الذى هو على صورة الإنسان يرى الحق باطلا والباطل حقاً ، كما يرى الخفاش نور الشمس ظلمة وظلمة الليل نوراً . نعوذ بالله من هوىً يعمى عن الحق ، وحظ تنقلب به الحقائق . وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل لنا نوراً فى قلوبنا نهتدى به إلى الحق ، ويحفظنى وأهلى وإخوانى والمسلمين .

الحقيقة الثالثة

أساس الإسلام مأخوذ من القرآن الكريم وبيان سيد المرسلين :

لم يُؤسَّس المجتمع الإسلامى على أساسات المدن القديمة ، ولكنه أسس على مبادىء

عالية ربانية لم تكن بوضع مخلوق ولا بتجربة مجرب ، ولكنها على تعاليم القرآن المجيد ، وبيان سيد المرسلين . فرفع الله شأن المسلمين ، ومكن لهم فى الأرض بقوته وعزته ، وجعل لهم السلطان حتى أذل لهم كل الأمم ممن كان لهم شأن وملك ، إلا بعض الأمم النائية التى كانت فى حال توحش لم يهتدوا بنور الإنسانية فأرجأوهم ، حتى إذا محوا الظلم والضلال من المدن العامرة أرسلوا إليهم من يرقيهم ويرفع شأنهم ، ولكن خلف من بعد الصحابة رضوان الله عنهم وتابعيهم بإحسان رحمهم الله خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وتركوا العمل بالسنة والكتاب ، فاكفهرت الأرض بعد خصبها ، ونزلت النقم وتغيرت النعم . نعوذ بالله من معصيته ، ومن مخالفة سنة نبيه ﷺ . وعسى الله أن يجدد النور ويعيده كما بدأه ، إنه مجيب الدعاء .

الحقيقة الرابعة

الخير الحقيقى والجهل به :

من البديهى أن الإنسان مجبول فى الحقيقة على حب الخير وطلبه والرغبة فى نيله بكل رخيص وغال ، وليس الإنسان وحده هو المفطور على حب الخير والرغبة فيه ، بل وكل الأنواع الحية من نباتات وحيوانات وجن وملائكة ، فما من نوع من تلك الأنواع إلا وهو مسارع لنيل الخيرات ، مجد كادح إلى الوصول إليها ، ولكن الجهل بالخير الحقيقى ما هو ؟ وبطرقه الموصلة إليه أين هى ؟ أنتج اختلافاً بين الناس ، وكثرت الوسائل والمقاصد والخير الحقيقى واحد ، والطريق الموصل إليه واحد ، ولكنك لو سألت أجهل جاهل من الناس مَن على الحق البين ؟ لقال لك : أنا ، لأنه يعتقد أن المقصد الذى يقصده هو الخير ، والطريق الذى يسعى عليه لينال مقصده هو أقرب طريق لاستقامته ، ولو ظهر له جلياً الحق الصريح والطريق الموصل إليه لاتبعه بسرور وابتهاج ، إلا أن يرده عنه هوى متبع أوشحٌ مطاع أو إعجاب برأى ، وإلا فمن يتحقق أن الطريق الذى يسلكه به آفات وبليات ، وأنه ينتهى إلى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، وبعده عذاب أليم ، ويرضى أن يسلكه إلا إذا كان لا يعقل .

مثال لمن يرده عن الحق هواه :

المجنون الذى يلقى بنفسه من شاهق جبل فيندق عنقه ، وتنفصل مفاصله ، لو سألته وهو على قمة الجبل : لم ارتفعت ؟ يقول : لأنال السعادة وأسر نفسى . ويلقى بنفسه ،

معتقداً أن ذلك سرور لنفسه وخير ، ومثل هذا لسنا نتكلم معه ، ونكتب له ، لأنه ليس من إخواننا فى الإنسانية . والأجدر به أن يربط كما يربط الوحش خشية ضرره ، ولما كان الخير مقصوداً لذاته والإنسان مكلف أن يبحث عن أقرب طريق يوصل إليه ، كان ولا بد للإنسان من البحث عن الخير الحقيقى والبحث عن الطريق الموصل إليه ، فإذا منَّ الله عليه بعلم الخير الحقيقى ومعرفة الطريق الموصل إليه ، قام فسارع مبادراً إلى نيل الخير على الطريق الموصل إليه ، ولو كان فى ذلك مفارقة الوالدين والأولاد بل والدنيا والنفس ، ومفارقة العادة ، لأن الخير لا يمنع عنه شيء ، وكثيراً ما حُرِمَ الإنسان الخير بسبب تعصبه لدينه أو لدين والديه ، أو غروره بعلمه أو عمله ، أو ماله أو عشيرته .

الحقيقة الخامسة

اتضاح الحق بالقرآن المجيد :

إذا وضح الحق بالبرهان وظهر جلياً للعيان ، لا يمنع العاقل عنه مانع ، ولا يصده عنه صاد . ولم يتضح الحق للعقل جلياً بالحكمة والموعظة الحسنة كما اتضح فى القرآن المجيد ، لأن القرآن الكريم كشمس أشرقت فى أفق العقول فبينت آيات الحق وأسراره ، فسجد العقل خاشعاً وسكن القلب مطمئناً . ولست أنكر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام قبل سيدنا ومولانا محمد ﷺ جاءوا بحجج دالة على صدقهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى ، ولكن الحجج التى جاءوا بها خوارق للعادات ، تجعل النفوس تنفعل انفعالا ينسيها المقصد الذى ظهرت الآية لأجله ، إلا العاقل الذى جاء يتحدى الرسول الذى تظهر الآية على يده كما حصل فى آية سيدنا موسى عليه السلام ، فإن السحرة جاءوا للتحدى ، فلما ألقوا حبالهم وعصيهم وسحروا أعين الناس ، وألقى سيدنا موسى عصاه عليه السلام ولقفت ما صنعوه ، تحققوا أنها قدرة الله تعالى فآمنوا ولم يؤمن غيرهم . ماذاك إلا لأن الآية أسكرت النفوس عن علم المقصود منها ، ولشدة انزعاج النفوس يرى الشاهد لتلك الآية . من شاب شعره ، ومن صعق ، ومن مات ، ومن صاح ، ومن فر هارباً .

وكذلك ما أظهر الله على يد سيدنا عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، وجعل الماء خمراً ، هى حجج قائمة على صدق ما جاء به ، ولكنها أسكرت النفوس فحجبتها عن المقصود بها حتى لدهشة العقول ، قالوا : المسيح ابن الله ، أو الله ، أو الله ثالث ثلاثة أحدها المسيح ، ماذاك إلا لأن الآية الخارقة للعادة لا تجعل للعقل

مجالا يفكر فيها ، ولكنها تغشى أعين الناس بحالة لم يعتادوا على نظرها ، فيحصل الدهش والانزعاج لجهل السبب . وما للعقل وخوارق العادات التى لم تتعودها الحواس ، ماله فيها بحث إلا أنه يبحث عن سببها وخواصها ، وما الذى دلت عليه ، والعقل لا يمكنه أن يجول فى تلك المعانى إلا إذا كانت الحادثة منقوشة فى لوح نفسه أو يحاكيها الخيال له . ولكن مثل تلك الآية الخارقة للعادات تؤثر على الحاضرين فقط فتزعج أنفسهم وتزيل عقولهم وتكون من ضمن العجائب الكونية تحكى أحاديث وأقاصيص . وليس من رأى السبع فى الغابة يعدو إليه بادياً نواجزه فحاربه وسلم منه ، كمن سمع الحادثة فى التأثير . فإن الذى حارب السبع شهد مشهداً شيب رأسه وفك مفاصله ، وكاد يزهق روحه ، والذى سمعها ضحك عجباً وتمايل طرباً . كذلك معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام قبل سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، إنما هى آيات خارقة للعادات وهى بعد مشهدها أحاديث وقصص .

معجزة سيدنا محمد ﷺ هى القرآن :

معجزة هذا السيد ﷺ آيات برهانية ودلائل يقينية ، صافحت العقل يداً بيد . ثم أشهدته الخير الحقيقى فأسرع إليه مجرداً مما كان فيه كإسراع ضوء الشمس إذا أشرقت فى الآفاق ، وشكر الله وحمده ، وذكر ما كان فيه قبل بعثة رسول الله ﷺ ، فندم على ما فرط وسأل الله المغفرة فيما فرط . تلك الآية هى القرآن الكريم المشرق للنفوس بالشفاء والنور ، وللأرواح بالخير الحقيقى والحبور ، وللأشباح بالسعادة والحظ فى الدنيا والآخرة ، ولا يزال غضاً نضراً مشرقة شموسه لم تغرب ولن تغرب إن شاء الله تعالى سر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] ، كل مسموع غيره يمل إذا كرر ، والقرآن يحلو على مر الزمان ، وكر الدهور . صراط الله المستقيم ، الموصل إلى نيل النعيم الأبدىّ .

حكم العقل فى الآية الخارقة للعادة :

ما الذى يحكم به عقلى لإنسان أحيا الموتى أو أبرأ الأكمه أو الأبرص أو ضرب الحجر بالعصا فانفجرت منه الأنهار ، إلا أنى أعتقد أن هذا إنسان أكرمه الله إن كنت عاقلا ، أو أنه من أقارب الله إن كنت جاهلا . ما الذى أناله بتلك العقيدة إلا أنها عقيدة كاعتقاد أن فلاناً عنده كنز من الجواهر . ولكن الذى معجزته القرآن هو الذى نفعنى الله به ،

(١) سورة الحجر آية ٩ .

لأن المعجزة هى حمله ووضعه وإعطاؤه الرسالة صبياً جعلته لا يقل عن المسيح عليه السلام .

وعلى فرض صحة تلك الكلمة عنه فكأنه يقول : أنا ابن الله . لا يقول : المسيح ابن الله . لأن هذا رسول وذاك رسول ، لأن يوحنا رسول والمسيح رسول ، والرسل لا يأتى رسولا من قِبل رسول ، وإنما يأتى من قِبل الله تعالى . ومن يقول إن الرسول يأتى من قبل الرسول فقد أخطأ وجهل ، وإنما الذى يرسله الرسول إلى الناس يقال له مندوب من قبل فلان أو خليفة فلان أو تلميذه أو حواريه أو وال من قبله ، ولا يقال رسول بهذا الإطلاق إلا لمن أرسله الله تعالى . إذا كان يوحنا رسولا من قبل الله تعالى فكلامه خاص بنفسه .

وقد أخبر الرسول داود عليه السلام فى المزمور الثانى الذى نسبه إليه اليهود أنه ابن الله قال فى الآية السابعة : إنى أخبر من جهة قضاء الرب قال لى : أنت ابنى أنا اليوم ولدتك ، اسألنى فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصى الأرض ملكا لك تحطمهم بقضيب من حديد مثل إناء خزف تكسره . فداود عليه السلام يقول : أنا ابن الرب كما أخبر عنه اليهود ، ثم يدعون أن عزيراً ابن الرب والنصارى يقولون إن المسيح ابن الرب الوحيد ولم يقل ذلك المسيح نفسه ، وإذا كانت الحقيقة خفية والبرهان مفقودا كيف تظهر ؟ والأولى أن يقف العقل موقفاً يدافع عن الحقيقة حتى يقررها بطرقه الصحيحة .

قال يوحنا فى شهادته : إنى أنا لست النور بل جئت أشهد للنور ، النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان آت إلى العالم وخاصته لم تقبله ، وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله . هذه هى شهادة يوحنا ، ومعلوم أن المسيح عليه السلام كان معه فى زمن واحد ، وأنه عاش بعد المسيح كما يقولون ، وأن المسيح لم يعط من قبلوه سلطانا ، لأنه كما يقولون قدر على نفسه الخزى والذل والهوان ليخلص العالم من خطيئة آدم . وخلص العالم من خطيئة آدم بصلبه ، فإذا كان المسيح أصابه الخزى والذل والهوان كما يقولون ، وصلب كما يقولون ، فكيف يعطى من قبلوه سلطانا وهو لم ينل هذا السلطان ؟ بل الذين قبلوه أصابهم من الذل والخزى والهوان أكثر مما أصابه بالضرورة ، وكيف يعيش الجسد بعد القلب ؟ .

وأما الذى أباه قومه وقبله غير قومه وأعطاهم سلطاناً حقيقياً فهو محمد ﷺ ، لأن أعمامه عادوه وآذوه حتى أجمع بنو هاشم على معاداته إلا ولد صغير هو على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ورجل هو حمزة ، وقبله رجل رومى (صهيب) ، وآخر فارسى

أوامر القرآن الكريم :

أمر بصلاة : هى شكر للمنعم . وبصيام : هو تطهير للأخلاق وتزكية النفوس . وبزكاة : هى ربع عشر المال تقرباً إلى عباد الله ، وتحبباً فى خلق الله . وبحج : هو قصد للحق ، وبصلة الرحم وبر الوالدين ، وبالعطف والرحمة وبالإحسان فى كل شىء ، وبمعاونة الفقراء ، وبالعفو وبمكارم الأخلاق وفضائلها ، ونهى عن الفحشاء والمنكر . أمرنا بالعمل فى الدنيا لنستعين بما نحصله على طلب الآخرة . أمرنا بجهاد أنفسنا وعدونا لنكون من عمار ملكوته الأعلى ، وتكون لنا العزة فى الدنيا والآخرة . وليس لنا عدو إلا الضلال والظلم والعدوان والفسوق ، فى أى صورة ظهرت ولو فى أنفسنا .

كل تلك الأوامر شرط فيها الشرع الشريف الذكر والقدرة على القيام بها ، وفى كل تلك الأعمال لذة للنفوس وراحة وسرور ، وخير فى الدنيا والآخرة . لأن الله سبحانه وتعالى لم يأمر خلقه بأمر إلا لخيرهم الحقيقى ليس له سبحانه فى ذلك نفع لغناه المطلق عن الكل فى الكل ، ولم ينههم عن شىء إلا لدفع الضرر عنهم لعلوه قدراً وعظمة عن أن يضره شىء . ولما كان أمره لخير خلقه ونهيه لدفع الضرّ عنهم رحمة منه وفضلا ، وهو الذى خلقهم ووهب لهم العقول والقوة ، وتنزه سبحانه وتعالى عن الظلم . فثبت يقيناً أن كل الأوامر الشرعية سهلة على النفس ممكنة بلا عسر ، وأن ما نهى الله تعالى عنه عمله شاق على النفس مضر لها بلا شك ، لا يجهل تلك الحقيقة إلا من مسخه الله تعالى حيواناً أعجمَ لانقياده لشهواته . أمرك الله تعالى بالبيع والشراء والزراعة والصناعة ، ونهى عن السرقة والغش والسلب والنهب . فانظر إلى حكمة الأمر وحكمة النهى فى تلك الجزئية ، وأقبل بقلبك على جناب القدس تشهد من غوامض أسرار الأحكام وبديع حكمة الحاكم ما يجعل عقلك ساجداً لربه مقبلا على جنابه المقدس ، قابلا منه سبحانه .

ثم اعتقد أن المجد يعود كما كان ، ولا تظن أن الأمر مستحيل ، فإن المستحيل هو مالا يتصور العقل وجوده . فكيف نعتقد أن ما كان موجوداً وأهملنا فيه حتى أضعناه يكون مستحيلا ؟ أنا لا أقول على ما لم يوجد مما يتصور العقل حصوله مستحيل . فالذى يقول باستحالة تجدد ما كان حاصلا وتناسته النفوس ليس بعاقل ، لأنه يحكم بغير علم أو يجهل السنن الإلهية فى الكون . وإن كل الخيرات إنما أظهرها الله تعالى على أيدى رجال عاملين تدرعوا بدروع الصبر ، وتجملوا بجمال الحكمة ، وباعوا حظوظهم وشهواتهم بثمن هو النفع الحقيقى لإخوتهم المؤمنين ، لا لأن يكون ما يريدون ، بل لأنهم يريدون

الخير الحقيقى لذاته ، ويكون ما يريده الله تعالى . فهم يعملون للخير معتقدين أنهم لا يحرمون نيله : إما فى الدنيا والآخرة بالفعل ، وإما فى الدنيا بلسان الصدق والثناء الحسن ، واقتداء من بعدهم بهديهم وفى الآخرة بالفعل . ومن قام يعمل ليكون ما يريد فلا يثبت قدمه على طريق النجاح ، ومثله كمثل من قال الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ﴾[1] .

لا تقعد عن العمل فإن به حياة المجتمع :

لعلك تقول فى نفسك : من أنا حتى أقوم بعمل ينفع المجتمع ؟ لا تصغر نفسك على العمل لكن صغر عليها العمل ، واعمل لأن العمل خير فى ذاته ، لا تعمل للأمل . وكيف يصغر الإنسان نفسه وهو عضو من أعضاء المجتمع واقف على ثغر من ثغوره . فلو لم يكن إلا أن تدعو نفسك إلى الخير وتجاهدها عليه لكنت من أعظم العمال القائمين بالنفع العام .لأنك إذا دعوت نفسك إلى الخير حتى لبَّت ، وجاهدتها فيه حتى عملت ، رفعت عن إخوانك المؤمنين شرورك ، وسلمتهم من الواجبات التى توجبها عليهم لأجلك . وإن لم يكن من الخير الذى تقدمه لهم إلا أن تكون مثالا حسناً لمن يراك ، لكنت عاملا من خيرة العمال ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] فأمر الله جميع المؤمنين بالعمل ولم يعين نوعه ، إشارة إلى وجوب العمل للخير مطلقاً . وبشرنا سبحانه بأنه يرى أعمالنا ، ويراها رسوله ﷺ . وليس ذلك بمنكر لدى العقل لأن الأرواح باقية والأرواح الكاملة مطلقة ، وروح رسول الله ﷺ أكمل الأرواح كلها من الرسل والملائكة ، ويرى المؤمنون أعمالنا فيدعون لنا ويقتدون بنا ، فيكون كل مؤمن قدم الخير لكل مؤمن . أيها الإنسان الذى استصغر نفسه أن يعمل للنفع العام هل الذين قاموا بأنفع الأعمال وأجلها بعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كانوا ملائكة أم جنا ؟ لا والله ، بل كانوا رجالا ، ربما كانوا فقراء أذلاء ضعفاء ، لا نسب لهم ولا حسب ، ولكن عملوا اقتداء بالسلف الصالح فنفعهم ونفع بهم ، وإن أكثر العلماء والحكماء وكبار الصناع والمخترعين والقواد العظام وأئمة الهدى والدعاة إلى الخير من الفقراء المعوزين أو الموالى المحتقرين .

---

(١) سورة الحج آية ١١ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٥ .

ولعلك تظن أنى أكلفك بعمل فوق قوتك ؟ لا . ولكن أقول لك : كم من حكمة أضاعها حكيم لاستصغاره بنفسه . وكم من مخترع نافع فكر فيه إنسان حتى تصوره ثم قعدت به همته الصغيرة عن إبرازه . وكم من نفع عامّ أعدت معداته وحانت أوقاته فانقلب إلى شر عاجل ، لجهل الإنسان بقدر نفسه ، وتقاعسه عن الإقدام على عمل الخير . سرت تلك البلية من الأفراد إلى المجتمع ، حتى صار المسلم إذا فكر فى عمل نافع وعرضه على أخيه ، ازدرى به واحتقره وربما رماه بالجنون ، وشنع به عليه فى المجالس حتى يطفىء تلك الشعلة النورانية ، ويخمد تلك الجمرة الإنسانية . وجعل كل فرد يظن فى نفسه أنه لم يخلق ليفكر فى عمل الخير وجلبه ، والعمل لدفع الشر ، بل ليكون آلة صماء يعمل ما يؤمر به ويطيع ما يسمع .

فلو أن كل فرد فكر فى تدبير نفسه منفردة ومجتمعة ، وبث روح النشاط فى العمال لتتولد الأفكار النافعة ، وتتشجع العمال على العمل مهما كانت الفكرة صغيرة والعمل حقيراً . فإن أصل المدن العظيمة رجل وامرأة ، وأصل القصور الشامخة طوبة أسند إليها أخرى، . وقد بلغ من انحطاط المجتمع أنك لا ترى أمام القضاة خصوماً إلا الأشقاء أو الأبناء ، والآباء أو أبناء العلات وبنى العم ، وإنما يتكون المجتمع بأفراده كما ترفع قواعد البيت بالأحجار .

فأنا أطالبك أيها المسلم بأن تتعلم الواجب لك وعليك ، وتقوم عاملا بما علمت ، حتى يقتدى بك أبناؤك وجيرانك . فيقوم كل واحد بالواجب عليه لنفسه ، والواجب عليه لله تعالى ولرسوله ﷺ ، ولخاصة المسلمين وعامتهم . ومتى قام كل فرد من المجتمع بالواجب ، سعدت الأمة فى الدنيا والآخرة . وإن أحببت المزيد فراجع هذا الموضوع فى غير هذه الرسالة ، لأنها كتبت لتنبيه النفس إلى كمالاتها .

جواب السؤال الثالث

متى يعود هذا المجتمع كما كان .

من البديهى أن عمل الخير والمسارعة فى تحصيله والتعاون على النفع العام ، ليس له وقت معين دون وقت ، إلا ما كان مرتبطاً بالسنن التى وضعها الله تعالى مقيدة بتنقل الأفلاك : كتقييد الزراعة بأزمنة خاصة بالنسبة إلى الحر والبرد ، وبنزول الأمطار وزيادة الأنهار . أما ماعدا ذلك فلم يقيده الله بزمان بل أطلقه ، إلا ما قدر سبحانه أن يجعل له

سبباً يدفع إليه ، أو حادثاً ينتجه كالحوادث التى تحصل من تعدى بعض الأمم الذى يدفع إلى مدافعتهم ، أو حصول غرق أو شرق يؤدى إلى التضامن على دفع المضار ، وتلك الحوادث تحصل فى آنات بغير حساب ، وليس لها ميزان . ولكن العاقل يعد لها معداتها ، وينتظرها فى كل وقت ، ويعمل لها بعد العمل لكفايته .

وبقية الأوقات والأمكنة صالحة لعمل الخير والاجتهاد فى جلبه بحيث لا يترك العاقل نفساً بدون أن يعمل فيه عملا ولو صغيراً ، فإن العمل الصغير إذا انضم عليه آخر صار عملا عظيماً نافعاً . وإذا حفظ المسلم وقته الذى يضيعه بلا ثمن أمكنه أن يحفظ ماله ووقته اللذين يفنيان،أمكنه أن ينفقهما فيما يبقى من الخير الحقيقى فى الدنيا والآخرة . وليس بعاقل من قال : لا أضيع شبابى فى غير شهواتى ، فإذا داهمه المشيب قال : ذهب الشباب وعسر العمل وجاء الشيب وزمان الراحة . هذا مسكين خسر دنياه وآخرته ، لأن العمل فى الدنيا هو الفضل الذى يتفضل الله تعالى به على عباده ، ليزيدهم من فضله يوم القيامة من النعيم الأبدى . ومن لم يهب له الله الفضل فى الدنيا ، فعمل لشهواته وترك العمل الواجب عليه ، عاقبة الله تعالى فى الآخرة . تنبه أيها الأخ نوَّر الله قلبك ، ولا تقيد أعمالك بالأوقات وتظن أن فى الأوقات نحوسا وسعودا ، وأنه يجب العمل فى أوقات ويجب ترك العمل فى أوقات ، فإن هذا الظن إثم عظيم . واعمل مادمت معافىً فى بدنك آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، مسارعاً إلى الخير عاملا لله سبحانه . فإذا عملت لخير نفسك وراحتها عند اللزوم ، ومعونتها بالغذاء والشراب والوقاية ، قم عاملا لنيل كمالاتها الروحانية وسعادتها الأبدية . وأنواع الأعمال التى توصل إلى هذا الكمال لا تخفى على من عرف نفسه ورغب فى كمالاتها .

المجد الذى فقده المسلمون :

لعل أخاً يسألنى قائلا : ما هو المجد الذى فقده المسلمون حتى يمكن أن يسعوا بعد العلم به بالعمل لتجديده ، فإنى أرى المسلمين كثيرين لم ينقص عددهم ولا يزال القرآن يتلى بينهم ، ومعاهد العلم آهلة بالمعلمين والطلبة ، والمساجد عامرة بالذاكرين والمصلين ، والناس يحجون بيت ربهم ، ولا يزال العمل فى الأحكام على القواعد الشرعية . وفى نظرى أن الإسلام على ما هو عليه لم يتغير منه شىء ولم ينقص ؟ فأجيبه : أنا لا أريد بالمجد الذى أنبه النفوس إلى تجديده قلة عددهم ليكثروا ، ولا قلة المساجد المشيدة فى المدن لنزيدها ، ولا قلة المعاهد العلمية التى كنز لها السابقون كنوز الإنفاذ

لريعها ، ولا ولا ولا .. ولكنى أقصد بالمجد الحقيقي الذى هو الروح الحقيقية الإسلامية التى تسرى فى القلوب فتجملها باليقين ، وفى الأجسام فتنشطها للقيام بعظائم الأعمال ، وتحتقر فى عين المسلم صغارها .

هذا المجد الذى جعل المسلمين بعد القلة يكثرون ، وبعد الذلة يعزُّون ، وبعد الجهالة يعلمون ، وبعد الخوف يُخِيفون ، وبعد أن كانوا مملوكين يملكون . هذا المجد الذى كان يجعل المسلم وهو فى مياه الهند ، يلبى أخاه وهو فوق جبال البرينات فى الأندلس . هذا المجد الذى جعل المسلم وهو فوق منبر المدينة المنورة ، ينادى أخاه وهو على سفح جبال سوريا فيسمع نداه . هذا المجد الذى كان كل مسلم فيه مع كثرة عددهم واتساع ملكهم واختلاف ألوانهم وترامى بلدانهم ، كعضو للمجتمع بأجمعه يعمل لخير الكل غير ناظر لنفع نفسه ، وإنما يحب نفسه ويحب لها البقاء ليعمل للخير العام . هذا المجد الذى جعل الأمم المختلفة الأخلاق والأنساب والعادات والبقاع ، يمتزج بعضها ببعض ويزدوج بعضها مع بعض وتتجنس بجنس واحد هو الإسلام ، وتقوى تلك الرابطة حتى تحصل الألفة التى تجعلهم كجسم واحد موصل جيد التوصيل للحضارة ، بحيث لو أن جزءاً صغيراً منه مسته الحرارة ارتفعت درجة حرارة الجسم كله مع تنائى أطرافه وعظم جسمه . وكذلك كان المجتمع الإسلامى متحداً اتحاداً بحيث لو أن أدنى مضرة ألمت بأصغر فرد منهم شعر المجتمع بأجمعه بالألم ، وقام كل فرد كأنه المجتمع يدفع الشر ويجلب الخير . هذا المجد الذى جعل كل فرد من المسلمين كأنه الأمة بعينها يؤمن من شاء ، ويضمن على الأمة ما شاء ، ويعاهد فلا يخفر أحد ذمته ، ولا ينقض بيعته ولا يرد أمانه هذا المجد الذى جعل الألسنة مع كثرتها كأنها لسان واحد ، لأنها لا تنطق إلا بالحق ولو عليها . وجعل القلوب قلباً واحداً لأنها لا تطمئن إلا بالحق ولو عليها ، وجعل الأيدى يداً واحدة لأنها لا تحرك إلا لعمل بسنة أو لدفع ضلال وبدعة ، وجعل الأرجل رجلا واحدة ، لأنها لا تنتقل إلا لقربات أو مكرمات . هذا المجد الذى سوى بين بنى الإنسان حتى ارتفع التمييز بين القرشى والعجمى . هذه هى الضالة التى ينشدها كل عاقل من غير المسلمين ، فكيف بالمسلمين أنفسهم ؟؟.

ولو نظرت أيها السائل بعين الفكرة إلى المجتمع الإنسانى فى كل أقطار الأرض فى هذا العصر ، لوجدت أن كل جماعة من هذا المجتمع تعد بما فى وسعها من العقل والقوة معدات تسوق غيرها من الجماعات إلى هاوية الذل لتجعلهم كبهائم مسخرة ، وتكون لها الكبرياء . وها هى المعدات الجهنمية يتنافس فيها الذين يدعون أنهم أهل مدنية ، وأنهم

خدموا العمران ، وأنهم الرحماء ببنى الإسلام . فليأسف على مجد الإسلام النصرانى قبل اليهودى ، واليهودى قبل المجوسى !! المجد الذى جعل غير المسلمين متمتعين بالحرية المطلقة والملاذ الشهوانية أكثر من المسلمين . كان المسلم إذا شرب الخمر يضرب ثمانين سوطاً . كان مكلفاً بلقاء الأعداء ولو فر قُتِل ، ومكلفاً بشهود الجمعة والجماعات وتعليم العلوم ، ودفع أمواله عند الحاجة لبيت أموال المسلمين ، وبالرباط على الثغور ، ولمساعدة الفقراء وبأحكام أخرى لا يُكَلَّف بها غير المسلم . وأهل الذمة فى بحبوحة الأمن والأمان ، والأمم المجاورة للمسلمين فى رغد العيش والإكرام . لِيَبْكِ المظلومون من جميع الأمم على هذا المجد ، وليبذلوا كل نفيس وغال فى إعادة هذا المجد ، ليعود السلام ويستريح العالم بأجمع من هذا العذاب ، وينجو من تلك الهاوية التى يسوق الإنسان أخاه إليها .

هذا رذاذ من وابل ، ولا ينكر على قولى هذا أحد . وكيف ينكر وكل المدن التى فتحها المسلمون لا يزال بها اليهود والنصارى فى أرغد عيشة وأهنأ حالة ، ولكنك لو نظرت إلى المدن التى بدلها الإفرنج التى كانت آهلة عامرة بالعلوم والصناعات والعدل والأمان ، لا يقل عدد المسلمين فيها عن خمسة ملايين نسمة ، أصبحت الآن وليس فيها مسلم واحد ولا مسجد ، ولكنك لو نظرت نظرة عامة إلى البلاد الإسلامية لوجدت الكنائس كما كانت ، والبيع على ما هى ، وأهل الأديان ممتعين بالحرية الكاملة إلا من اعتنق الإسلام عشقاً فيه ، واعتقاداً أنه الحق ، لم يدعه إلى الإسلام إلا عقله الذى قنع بنور الإسلام ، وقلبه الذى اطمأن بجمال الإسلام .

تجدد الإسلام سلامة لجميع بنى الإنسان :

لعلك أيها السائل علمت أن مجد الإسلام مجد لكل بنى الإنسان ، وأن تجديد الإسلام تجديد عام لخير بنى الإنسان ، وأن العمل بشرائع الإسلام سعادة لكل حى من حيوان وإنسان .

أين تلك الأخلاق الفاضلة التى جعلت أمير مصر القرشى فى مستوى واحد مع رجل من أهل الذمة فقير مسكين ؟ ثم بعد أن استوى معه فى المجلس استوى معه فى الحقوق ، فقام ولطمه على خد يأنف أن يمسه أعلى الكواكب . كيف لا ينشد تلك الضالة غير المسلم ويتمنى أن يعيد الله أنوار تلك النفوس الطاهرة ، وأسرار تلك القلوب العامرة

باليقين ، وأعمال تلك العقول الزكية الكبيرة التي صغرت أمامها العظائم . لا أشك أن كل موجود فى تلك الدار الدنيا يتمنى أن يكون من أهل ذلك الزمان الماضى ، أو أن الله يعيده حتى يكون آمنا على دمه وماله وعرضه وأهله من شرور أهل هذا العصر ، الذين يدعون أنه عصر المدنية والحضارة ، والحقيقة أنه عصر الظلم والجهالة .

تأمل فى الرحمة التى باطنها العذاب :

تسمع الأصوات تنادى : وارحمتاه بالحيوان من ظلم بنى الإنسان فى البلاد الإسلامية ، وتصرخ : واشفقتاه على الذين استرقهم المسلمون لتحريرهم ، فتسمع الآذان صدى تلك الصيحات ، فتقول : ما أرحم وأشفق بنى الأصفر . وما تلبث قليلا إلا ريثما ترى رؤوس الكهول والأطفال قد اختطفها لهب النيران ، وبطون النساء قد بقرتها المقذوفات ، وهجمت الوحوش المفترسة على البلدان فتركت أشلاء القتلى كالتلال . وياليتهم شعروا بتلك الآلام ، ولكنهم يقيمون الزينة والأفراح بين أنين الجرحى وتأوه المرضى ، وأنفاس مفارقى الدنيا .

عجباً لمن يرحم الحيوان الذى فى يد المسلم ، ثم ينقلب فيحرق صاحبه بنار البارود وشواظ المقذوفات !! عجباً لمن يحرر الرقيق الذى تمتع بأكمل الحرية بالعيشة الهنية مع مولاه فشاركه فى نعمته ، وربما زوجه بابنته ، كيف يسلطون تلك المقذوفات الجهنمية على أشراف الناس وأحرارهم !! عجباً لقوم يبعثون البعثات لتداوى المرضى مجاناً تعطف على البؤساء ، ويبعثون وراءهم نار الحريق الماحقة للدين والدنيا والنفس والعرض !! نعم هى رحمة ، ولكن من ورائها العذاب الأليم ! ولو أنها رحمة من ورائها خير لكان الأولى أن يقوموا بها للبؤساء فى بلادهم الذين يموتون جوعاً على أرصفة الشوارع ، ويمر الغنى عليهم فينظر إليهم نظرة صغار ، وإلى نفسه نظرة علو وعز وكبرياء ، ويقول : لولا موت هذا جوعاً ما شبعت . سبحان الله لابد وأن تنكشف الحقيقة فى يوم ما ، وكما يدينون يدانون ، وسيجعل الله بعد عسر يسرا .

هذا أيها السائل الكريم هو المجد الذى أتمنى أن يعيده الله كما بدأه ، ويتمناه معى كل محب لسعادة المجتمع الإنسانى . هذه قطرة صغيرة من فضل العمل بالإسلام فى الدنيا ، فكيف بالفضل العظيم الذى يناله فى الآخرة العامل بشرائع الإسلام فى الدنيا ؟ لا شك

أن نيل الأجر به فى الآخرة أكمل وأتم ، والفوز بالسعادة بسبب التمسك به أجمل وأشمل وأعم . فكيف لا أتمناه لكل إنسان وبه سعادة العالم بأجمعه فى الدنيا والآخرة . لا تظن أنى تعصبت فى دينى ، ولكنى أحببت الخير لبنى نوعى . أقول الخير بعد تبصرة وبيان ، ونظر وبرهان . والحمد لله لم يبق على الشمس ما يحجبها إلا ظهرت أشعتها من هذا الحجاب ، لمن له تبصرة أو ألقى السمع وهو شهيد ، وما علينا إذا لم تفهم البقر .

دعاة النصرانية بين المسلمين

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأسأله سبحانه أن يحفظنى بتوفيقه وعنايته من خطأ يخفى الحقيقة ، أو زلل يغيرها ، أو ضلال يمحوها ، أو جهل ينتج عصبية للضلالة ، أو طمع يوجب خبثاً فى الحيلة لمحو الحق وإثبات الباطل . وأشهدك اللهم أنى آمنت بكتبك التى أنزلتها . وبجميع أنبيائك الذين أرسلتهم دعاة وهداة إلى طريق النجاة . وأستعين بك اللهم فى بيان ما خفى عن القلوب من الحقائق ، وما تستر عن العيون من الحق والبيان بسبب الأطماع ونسيان يوم الحساب .

يجهل كثير من الناس السبب الذى نشر النصرانية فى بلاد مصر والشام وأوربا ، وجهل تلك الحقائق مضر بالمجتمع الإنسانى . معلوم أن الرومان كانوا محتلين بلاد الشام ومصر ، وكان سكان سوريا إذ ذاك أكثرهم من اليهود ، فلما أن أرسل الله سيدنا عيسى عليه السلام ، ليبين لبنى إسرائيل ما خفى عليهم ، ويخفف عنهم ما شددوا به على أنفسهم ، ويردهم إلى أصول التوراة ، لأنه عليه السلام يبعث بشرع جديد ، ولم يرسل بأحكام غير أحكام سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، إلا ما كان لابد منه من بعض الأخلاق الفاضلة التى لم تبين فى التوراة ، لاحتياج أهل زمانه إليها ، مما هو موضح فى أخبار حوارييه .

ولما كان قبول ما جاء به مما لم يكن فى التوراة أمرا عظيما على نفوس أهل هذا الدين ، جعل الله تعالى الحمل به وولادته من الحوادث العجيبة ، والآيات الغريبة ، التى تنبه الأفكار إلى هذا المولود ، وتلفتْ الأنظار إلى أعماله ليكون نابه الذكر من صغره ، معتنى بشأنه من طفوليته . فحملت به فتاة برة مصونة صديقة بلامس ذكر . وكان أنبياء ذلك الزمان يعتقدون البركة فيها وإكرام الله تعالى لها ، وعنايته سبحانه وتعالى بها ، قبل حدوث تلك الآية الكبرى . ولما أن حملت به عليه السلام أنكر أكثر أهل الدين أمرها ، وصدق دعواها الأنبياء فى زمنها ، إقراراً بقدرة الله الذى خلق الإنسان الأول من الطين .. فنالت هذه الصديقة من أهل الإنكار ما جعلها تتمنى الموت ، خصوصاً وكان معها فى البيعة عابد يسمى يوسف النجار ، الذى تزوجها بعد ذلك وأولدها أولاداً ، فرماها جماعة اليهود بالزنا ، حتى إذا حان حين وضعها وانتقلت من البيعة إلى المزارع حيث جلست تحت نخلة فوضعت هناك ، فجاءها أئمة اليهود يشنعون عليها ، كيف

تزنين وأبوك رجل تقى وأمك مصونة ؟ فأكرمها الله تعالى بأن أنطق ابنها آية دالة على أنها صديقة لا زانية . وأن الذى خلق الشمس والقمر والنجوم ، وخلق الحيوان من الطين وخلق آدم من الطين ، لا يعجزه خلق إنسان من فتاة مؤهلة لأن الأرض الخصبة كثيراً ما تنبت بلا بذر إذا نزل عليها ماء السماء .

ليست آية المسيح بأعجب من آية آدم وغيره :

وليس حمل مريم بولدها عيسى عليه السلام بأعجب من حمل الأرض بولدها آدم . والذى يعتقد أن الأرض ولدت رجلا هو آدم وأن رجلا ولد امرأة هى حواء لأن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر لا يتعجب إذا رأى فتاة بالغة خلق الله منها ولداً . ولو أرجعت الأمر إلى الأمور العقلية الطبيعية ، وجردت نفسك من وساوس الخيال ومن فساد الأوهام لحكمت أن الأمر ليس فوق العقل ، ولا يحتاج أن يكون الذى يولد بهذه الصفة هو ابن الله ولا أخاه ، ولا أنه الله جل تجسم فصار ولداً ، لأن العناصر الأربعة فى المرأة إذا توازنت توازناً حقيقياً مؤديا إلى كمال الرتبة الحيوانية الإنسانية يجوز أن يتحلل من المجموع المنوى منى صالح لأن يتطور فى الرحم أطوار منى الرجال ، فيكون منه إنسان ينقصه قوة الشهوة الإنسانية ، وثقل الطينة الآدمية ، كما حصل كثير مما يقول عنه غير المتدينين إنه من فلتات الطبيعة . ويقول أهل الدين قدرة الله صالحة لكل شىء والله قادر على كل شىء .. نعم خفاء السبب يوجب العجب ، ولكن لم يخف السبب . إذاً القدرة التى خلقت إنساناً من الطين ، وإنسانة من إنسان ، وجعلت غصناً الذى هو عصا سيدنا موسى عليه السلام من شجرة حيواناً يسعى يلقف كل شىء يمر به ، وجعل الريح تصير كبساط يجلس عليه الإنسان (سيدنا سليمان) ، ثم تحمله وتطير به . وجعل تلك الآيات العجيبة المشرقة جلية فى المجموعة الشمسية وفيما بين السماء والأرض وفى الأرض .

كل تلك الآيات لم تكن عجيبة عند العاقل لظهور سببها جليا ، وهو قدرة القادر الحكيم . ولكن الجاهل بقدرة الله تعالى ، وبكمال تنزيهه سبحانه ، وبعلى جلاله وعظيم كبريائه وعزته ، إذا رأى آية مما لا يعجب منها العقلاء ، يظن أنها هى الله أو جزء من الله ، وكفى بالجهل شراً . أكرم الله عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام بما يلفت إليه الخلق وخصوصاً بما كان يتنافس فيه أهل زمانه من الطب والسحر ، وكان عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله ، ويحيى الموتى بإذن الله ، الأمور التى أعجزت

أئمة الأطباء فى عصره ، كما فعل سيدنا موسى عليه السلام حين ألقى العصا فصارت تلقف ما صنعوا . وإن العجب من عصا سيدنا موسى عليه السلام ، عند العاقل أولى من العجب بآيات سيدنا عيسى عليه السلام ، لأن المرض من شأنه أن يزول لأن عارض ، والموت سبقته الحياة . فإرجاع الأصل سهل على القدرة ، ولكن تفجير اثنى عشر نهراً من حجر صغير يحمل فى الكم أعجب وأغرب . وشق البحر حتى يصير الماء كجبل انفلق فكوَّن وادياً بين جزأيه وجمد الماء كأنه جبل وييس ما بين الفرقين بحيث صار الماء لا يسيل حتى مر سيدنا موسى عليه السلام ومن معه من بنى إسرائيل ، ثم انضم بعد ذلك فصار متلاطماً بالأمواج ، تلك الآية أعجب وأغرب من كل آية أتى بها سيدنا ومولانا عيسى عليه السلام . فالجاهل ربما يظنُّ أن العصا هى الله ، وأن الله حل فى العصا ، كما ظن بعض بنى إسرائيل أن عزيزاً الذى أماته الله مائة عام وأحياه بقدرة وحكمة هو ابن الله لجهلهم السبب ، ولكن إذا ظهر السبب بطل العجب .

فأى عجب فى أن امرأة ولدت بدون زوج ، وقدرة الله صالحة لأكثر من ذلك ؟ وأى عجب فى أن إنساناً يقول الإنجيل : (لست المعلم الصالح المعلم الصالح هو الله) ويقول : (اعبدوا أبى وأباكم الذى فى السماء) ويقول : (من يؤمن كإيمانى يعمل كأعمالى وأكثر) . ثم يقيم الحجة على أنه عبد الله ورسوله بما يعجز أهل زمانه ، فيعتقد الجاهل أنه ابن الله ، أو أنه هو الله ، أو أنه جسم حل فيه الله . لا تعجب إذا اعتقد الجاهل عقيدة من تلك العقائد فليس بعد الجهل ذنب . وكفى ذما للإنسان المؤهل لتلقى العلوم المفيدة ، ونيل كمالات النفس ، أن يكون جاهلا يلقى نفسه بجهله فى هاوية العذاب .

جهل الإنسان بعظمة الرب مضر بالمجتمع :

بلغ من الجهل بالإنسان أنه كلما رأى ما يجهل سببه مما حصل على يد إنسان يقول : إن الإنسان الذى حصل على يده هذا الأمر العجيب هو الله . فإن كان مؤمناً بالله يقول : هو رسول الله . فإن كان عالماً بمقامات الرسل أنه لا رسول بعد خاتم الرسل يقول : هو ولى الله . وربما كان ساحراً أو كاهناً أو محتالا خبيثاً ، وإن أقل الأعمال التى حصلت على يد سيدنا عيسى عليه السلام ، تجعل الجاهل يعتقد أنه ابن الله ، وأنه هو الله ، أو أن الله حل فيه . ولا غرابة ، فإن الإنسان اعتقد أن النار هى الله ، واعتقد أن الشمس هى الله ، واعتقد أن صورة من الحجر صنعها بيده هى الله . وقد كان بعض

كهان من الآشوريين والبابليين يضعون الماء فى قدر ويسدون فمه بصمامة ويضعونه فى جوف الصنم ويوقدون تحته النار ، ثم يحضرون أكابر قومهم ، فإذا ارتفعت درجة الحرارة قذف البخار الصمام وصار له صوت عجيب ، فيقول الكهان للقوم اسجدوا للرب وقدموا له كذا من القرابين ، فيقدمون ما يأمر به الكهان فيزول غضب الرب بزوال الصوت ، وهذا لجهل الإنسان بعظمة الرب . ومتى جهل الإنسان بهذا الرب العلى ألقاه جهله فى هاويات العذاب الأليم . انظر كيف جعلوا عيسى عليه السلام ابن الله لجهل سبب إيجاده ، وهم يعتقدون أن الأرض ولدت رجلا وأن الرجل ولد امرأة ، فهل الأعجب أن تلد الأرض رجلا أو أن تلد المرأة البالغة ولداً ؟ ولكن لعن الله الجهل كيف ألقى أهله فى هاويات الخسران .

شب عيسى عليه السلام بين بنى إسرائيل منظوراً إليه بعين الاحتقار ، مبغوضاً من قومه مرذولة أمه . ولكن الذى خلقه سبحانه وأهله لأن يكون رسولا لبنى إسرائيل يخفف عنهم أثقالهم التى شددوا بها على أنفسهم ، ويبين لهم ما خفى عليهم فى التوراة ، ويفك الأغلال التى أحاطت بأعناقهم فأخرجتهم من العمل بالحق إلى العمل بالباطل وكبت وجوههم فى النار بها ، فقدر سبحانه وتعالى أن يجدد لهم فى كل يوم آية من طفوليته تلفت إليه الأنظار وتوجه إليه الهمم ، وتشغل فيه الأفكار ، وهو مع ذلك لا يناله هو وأمه من بنى إسرائيل إلا ما ينغص الحياة حتى فارقت به قومها .

وكم أكرمه الله فى سفره وحضره بآيات تنبه العقول بقدره : أبدل الله له الماء خمراً عتيقاً ، وأظهر على يده عليه السلام ما يكفى للعاقل أن يعتقد أنه رسول كريم على الله ، ولكن الحقيقة التى تقررت فى أذهان قومه نقشت فى لوح خيالهم كالنقش على الحجر جعلت النفوس تنفر منه مع كثرة آياته ، والقلوب تنزعج منه مع وضوح معجزاته .

وكان أشر الناس عليه الأحبار والكهان الذين كانت لهم الرياسة والسيادة على شعب إسرائيل . وسبب ذلك أن سيدنا عيسى عليه السلام لما أن أكرمه الله تعالى بالآية التى بها شفاء المرضى مع ما منَّ الله عليه من الحكمة الإلهية ، كان عليه السلام يكثر حواليه المرضى والفقراء وكثيروا الذنوب ، لأنه كان يشوق الناس إلى الجناب الإلهى بوسعة الرحمة والفضل ، لينوع أفكار العالم بما يكشفه لهم من وسعة رحمة الله ومغفرته وعفوه ، ومن إقبال الله على من اتقاه بقلبه وآمن به سبحانه وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم .
ولذلك فإنك ترى العشارين والخطائين والمرضى من الرجال ومن النساء المرضى والبغاة

يلتفون حوله لفرحهم برحمة الله وشوقهم إلى ما كان يشوقهم إليه من الملكوت ، ويرغبهم فيه من الحياة الأبدية . وكان أكمل جاذب يجذب به القلوب ويؤلفها عليه ، ما كان متصفاً به ﷺ من التواضع والخشوع والذل ، حتى بلغ من تواضعه أن داعياً دعاه فقال : أيها المعلم الصالح . فالتفت إليه مغضباً وقال : (أنا لست المعلم الصالح المعلم الصالح هو الله) .

وكان عليه السلام مخشوشناً فى مأكله وملبسه ، ليتحقق الناس بأنه عبد مسكين ، وأن تلك الآيات التى تظهر على يده هى من الله الذى خلقه آية من آيات قدرته ، وكان عليه السلام يرضى بالقليل من الطعام وينام على التراب ويبول ويتغوط خارج الأماكن ، ليشهد الناس أنه إنسان مثلهم ، وأن تلك الآيات لا تجعلهم يجهلون . ولكن الأحبار لما رأوه كثر محبوه من العامة ، وانتشر ذكره بين الخاصة ، وظهرت على يده الآيات العجيبة ، وتحققوا أنه يدعو إلى الحق الصريح ، الذى إذا ظهر محق رياستهم وأزال سيادتهم ، وسلب منهم السلطة الدينية . ولا يخفى حرص النفوس على الشهوات والحظوظ ، فقام سادات اليهود عليه قيام من يريد أن يفقد حياته ليتلذذ بالحياة بعده لأنهم تحققوا أن بقاءه إذلال لهم وبلاء عليهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يكلأ رسله ويحفظهم .

مكائد أحبار اليهود ضد المسيح :

بينما كان الأحبار يدبرون تلك المكائد ، كان ذكره عليه السلام قد انتشر ، حتى وصل إلى الحكام الرومانيين المحتلين لسوريا . ومن البديهى أن الأمة إذا احتلت بلاد أمة أخرى يتألفون من له الشهرة الدينية ممن يحبه العامة ، ويعتقدون فيه تأليفاً للأمة ، فاستحسن حكام الرومانيين أن يجعلوه ربَّ إسرائيل أى رئيسهم وملكهم ، تأليفاً لعامة الشعب ، لما رأوه من زحام الناس عليه وحبهم له . فكان هذا النبأ كصاعقة نزلت على أحبار اليهود ، فقاموا يدبرون المكائد لقتل سيدنا عيسى عليه السلام ليستريحوا منه ومما يتوقعونه منه من الهلاك . ومنْ قرأ التاريخ وعلم الأمر على ما هو عليه يظهر له سعى يهوذا الأسخريوطى لجعل المسيح عليه السلام رب إسرائيل من قِبل الرومانيين ، والتماسه من المسيح عليه السلام هذا الأمر بكل ما فى وسعه ، ليكون ليهوذا هذا السلطان الحقيقى . لأن المسيح عليه السلام لم يكن ملتفتاً للدنيا ولا لعمارتها ، لأن وصاياه كلها وتعاليمه كلها تفيد الحث على ترك الدنيا وعدم العمل فيها لها . فكان عدم قبوله أن يكون

رب إسرائيل كنقمة حلت بحواريه الصادق يهوذا ، وكان هو السبب المعين لبنى إسرائيل على الحادثة التى سأبينها تفصيلا . والمسيح يأكل مع يهوذا ويشرب معه ولا يعلم ما يدبره له من المكائد ، ذلك لأنه إنسان لا يعلم الغيب إلا إذا علمه الله من الغيب ما شاء أن يعلمه .

قلت : إن المسيح عليه السلام كانت تعاليمه ووصاياه ترك الدنيا والإقبال بالكلية على الآخرة التى يسميها الملكوت ، ذلك لأنه عليه السلام لم يكن رسولاً مستقلا بشرع جديد ناسخ لما قبله من الشرائع ، ولكنه أرسله الله رسولا إلى بنى إسرائيل ليغير البدع بالسنن والضلال بالحق ، وهذا صريح قوله عليه السلام : (ما جئت لأهدم الناموس) . ولما كانت أعمال التوراة أكثرها قاصرة على العبادات البدنية ، كانت وصاياه وتعاليمه متعلقة بالأعمال القلبية أكثر تكميلا للناموس ليكون بحسب زمانه كاملا . ولذلك فإن الذى تلقى وصايا وتعاليم المسيح عليه السلام يجب أن يكون تلقى جميع أحكام التوراة المتعلقة بالعبادة والمعاملة فى سفر التالوت ، ليجمع بين الكمال الحقيقى الذى هو العمل فى الدنيا والآخرة . ولجهل الأحبار بما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام واعتقادهم أنه جاء رسولا ناسخاً ، وإنكارهم على نسبه جعل العداوة فى قلوبهم تبلغ مبلغاً أدى إلى الكفر الصريح وإنكار كل تلك الآيات ، حتى اشتد العناد إلى أن أجمعوا على قتله خوفاً على ضياع دينهم به وذهاب دنياهم وخراب ملكهم ، وأن إدراك حصول حادثة من تلك الحوادث يكفى فى أن الرجل يبذل ما فى وسعه لراحته من عدوه .

هنا يقف القلم ليتلقى عن القلب الصادق الذى يستعين بالله فى أن يمده بما به يظهر الحق جلياً ، ويخفى الباطل ليسعد الإنسان بالإنسان ، وينتفع الإنسان بأخيه الإنسان . أنبئنا أيها القلب عن سنة الله تعالى فى رسله الذين أرسلهم من قبل ، أنبئنا عما أحطت به علماً من صحيح الأنباء وصادق الأخبار ، مما لا ينكره عليك أخوك الإنسان مسلماً كان أو نصرانيا أو يهوديا . أستعين بك يا ألله وأعوذ بوجهك الكريم من نزوع نفسى إلى مالا تحب سبحانك ، ومن لقسها ومن هوى يعمينى عن الحق ، ومن حظ يعيننى على ما لا ترضى من القول .

مراتب الرجال :

معلوم أن مراتب الرجال ثلاث : رسول ، فنبى ، فولى . فالرسول : هو نبى أوحى الله إليه بشرع يبلغه لأهل زمانه ، ويعمل به فى نفسه . والنبى : هو إنسان أوحى الله إليه

بأحكام خاصة يعمل بها فى نفسه تكون مزيد بيان لشريعة الرسول الذى هو فى عصره أوقبله . والولىُّ : إنسان وفقه الله تعالى للعمل بشريعة الله سبحانه . إذا ظهر هذا التفصيل فلنتكلم على سنة الله فى كل مرتبة من تلك المراتب

سنة الله فى رسله صلوات الله وسلامة عليهم

نبدأ بما هو ثابت شرعاً فى كل الكتب السماوية :

١ – هذا سيدنا نوح عليه السلام : مكث ألف سنة تقريباً يعاني الشدائد ويتحمل الآلام والمصائب ، يدعو قومه وهم يناوئونه ويسعون فى قتله تعصباً للأصنام ، وحرصاً على ما هم عليه من الضلال ، فحفظه الله من كيدهم ، وأنجاه ومن معه وأهلكهم أجمعين .

٢ – وهذا سيدنا هود عليه السلام : يدعو قومه إلى الله ويأمرهم بعبادته وترك الأصنام والأوثان ، فأخذتهم النعرة الجاهلية وحمية الضلالة ، وأجمعوا على قتله ، فأنجاه الله وأهلكهم .

٣ – وهذا سيدنا صالح عليه السلام : جعل الله الناقة له آية دالة على صدقه فيما يدعوهم إليه ، فانكروه وآنكروا ما جاء به ، وأجمعوا على قتله ، فقتلوا الناقة أولا وهمُّوا بقتله عليه السلام ، فأهلكهم الله وأنجاه .

٤ – وهذا سيدنا لوط عليه السلام : دعا قومه إلى الحق وترك الفاحشة ، والعمل بالمعروف ، فأبوا عليه ، وهجموا على بيته ليفعلوا الفاحشة فى ضيوفه ، فدفعهم مع ضعفه ومنعهم مع ذله ، فأنذروه بالقتل صباحاً فأهلكهم الله وأنجاه ومن معه .

٥ – انتقل بنا إلى سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، أصل العرب وأصل إسرائيل ، لأنه عليه السلام أبو إسماعيل وإسحاق عليهما السلام . والأول أصل العرب والثانى أصل إسرائيل .

قام الخليل صلوات الله وسلامه عليه داعياً قومه إلى توحيد الله وعبادته ، فأنكروا عليه ذلك وقالوا إنا وجدنا آباءنا على ما نحن عليه ، فأقام عليهم الحجة القولية فأعمى التعصب قلوبهم عن فقه الوصية ، وقطع أكابرهم حب السيادة والرياسة عن الحق ، فأخذ الفأس وكسر أصنامهم ووضع الفأس على كتف كبيرهم ليقيم الحجة العقلية عليهم . فلما سألوه ، أقام عليهم الحجة البرهانية ، فقال : فعله كبيرهم هذا فاسألوه . فقالوا : أنت تعلم أن الأصنام لا تنطق . فأقام عند ذلك الحجة القاصمة للظهور ، والماحقة للباطل . ولكن قبح الله الجهل ما أشنعه ولعن الله الهوى ما أضله ، قال :

أتعبدون مالا يتكلم ولا ينفع ولا يضر ؟ تعساً لكم ولما تعبدون . فأخرست الحجة ألسنتهم وقطعت نياط قلوبهم ، واقشعرت لها جلودهم ، ونكست لوضوحها رؤوسهم وانحنت ظهورهم . ولكن قبح الله الطمع ، كم حجب الحق وأظهر الباطل ، وكم ستر الهدى وأظهر الضلال ! قاموا بعد إقامة الحجة البالغة لا يبالون بالحق البين ولا بالنور الجلى ، فأجمعوا على أن يحرقوه بالنار وجمعوا له المعدات الجهنمية من الحطب والأدهان ، وأوقدوا النار حتى تلظت ، وأججوها حتى اسودت فاحمرت فابيضت ، وصارت تذيب صلب المعادن . وألقوه فى مركز تلك الدائرة ، ثم صاحوا مكبرين آلهتهم قائلين : هكذا نفعل فيمن يذم آلهتنا .

ولا يمكننى أن أجعل هذا الجسم الإنسانى محفوظاً فى جوف تلك النار التى تذيب الأحجار ؟ إن كان ذلك حصل فكأن المرسل الذى أرسل الرسول لا قدرة له لعجزه عن حفظ رسوله من شر من أرسله إليهم ، وتنزه الجناب المقدس العلى عن أن يعجزه شيء ، وعن أن يرسل رسولا فيمكن منه أعداءه . آية تقشعر لها الجلود ، وتطمئن القلوب بها ، لأنها تنبىء عن قوى حفيظ ، ولى لأوليائه وكيل رسله وحسبهم . ما الذى جرى لهذا الجسد الإنسانى فى تلك الحطمة ؟.

الله أكبر ، صارت له الحطمة روضة من رياض الجنة ، والهاوية حديقة من حدائق الفردوس الأعلى . أنجى الله رسوله وكيف لا ينجيه وهو الذى أرسله ؟ وكيف يرسله ويمكن منه أعداءه ؟ أو يرسله ويسلط عليه الضالين المضلين ؟ ما هكذا شأن العبيد الذين جعلهم الله ملوكاً فى الأرض ، فإن الرجل منهم إذا أرسل رسولا لمهمة من مهمات المملكة ، أحاطه بقوة تدفع عنه شر المرسل إليهم من الجند والعدد والعدد ، ولا يعلم جنود ربك مع رسله إلا هو .

هذه الآية الكبرى أكبر من كل آية أتى بها سيدنا عيسى عليه السلام . خرج الخليل من النار كأنه كان فى الجنة ، أنجى الله رسوله . وتلك سنة الله فى رسله ، وأهلك أعداءه .

٦ – انتقل بنا إلى الكليم عليه السلام : أرسله الله لفرعون ، ومن فرعون ؟ رجل كان يعتقد أنه الإله الأكبر غروراً بملكه ، وما مد به من كثرة الأموال ، وقوة الجند ، وبسط العيشة ، وسعة الملك . ومن موسى عليه السلام ؟ رجل من بنى إسرائيل الذين كانوا عبيداً لفرعون وقومه ، فقام يدعو فرعون مع فقره وضعفه واحتقاره فى عين فرعون ،

وعارض فرعون وجادله فى قوة سلطانه وصولة ملكه ، وإطلاق كلمته وعلو مكانته ، فعجز عن أن يأمر بقتله ، لا لما حوله من الجند والقوة ، بل لأنه رسول الحفيظ الواقى الذى بيده مُلكوت السمٰوات والأرض ، وهو على كل شىء قدير . ومكث سيدنا موسى عليه السلام يشنع على أهل مصر وهو منفرد مسكين ويؤذيهم بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة ، فلم يجرؤ إله مصر الطاغية الجبار العنيد أن يقتله أو يحلق شعر رأسه أو يقلم ظفره ، فضلا عن أن يصلبه ، وكم صلب على جذوع النخل ، وكم فجر بطوناً ، وكم أحرق أناسىّ . وكيف يجرؤ على من أرسله القوى القادر القريب المجيب الحفيظ السلام . ولم يزل كليم الله عليه السلام حتى أهلك الله فرعون وجنوده وأنجى الله رسوله ومن معه .

٧ — ثم انتقل بنا إلى رسول الله عليه السلام يونس بن متَّى : وعظ قومه ودعاهم إلى التوحيد فأبوا ، وأخبروه إن لم يخرج من بينهم قتلوه ، فدعا الله عليهم أن يهلكهم . وقدَّر الله تعالى أن يهديهم ، فلما لم ير هلاكهم خرج مغاضباً فوقع فى اليمّ فالتقمه الحوت ، ومكث فى بطنه ثلاثة أيام . ولكنه لما كان رسول الله تولاه مرسله سبحانه وحفظه من بعثه جل جلاله ، فألقاه الحوت على البر لأنها سنة الله فى رسله . ومن فهم غير ذلك أن الله تعالى يسلِّط الكفار على رسله ، فقد جهل سنة الله وعادته سبحانه . والحقيقة أن الله يسلط رسله على من يشاء ، وها هى أسفار التوراة وأصحاح الرسل حجة لما أقول .

٨ — وعلى هذا البرهان الجلى ، أقول : إن سيدنا عيسى عليه السلام رسول الله حقا، وأن الله وليه وحافظه ، وأنه تعالى تنزه وتعالى عن أن يسلط عليه أعداءه الكافرين . وليست قوة الله القاهرة وقدرته العلية ؛ وحفظه الإلهى لرسله بشىء يحسُّ للعين عند المقتضى ، أو يلمس باليد ، فإن جنود ربك لا يعلمها إلا هو . ومن قال : إن سيدنا عيسى عليه السلام قهره اليهود وقتلوه ، فلى أن أقول : إن الذى قهر وقتل ليس هو رسول الله لأن سنة الله فى الرسل لا تبديل لها ولا تتغير فيها ولن تجد لسنة الله تبديلا هذه سنة الله فى الرسل .

سنة الله فى الأنبياء

النبى كما قررنا إنسان أوحى الله تعالى إليه ببيان أحكام الشريعة السابقة ليعمل بها ، ويبين أحكام الشريعة بالحكمة والموعظة الحسنة لأهل زمانه كعلماء المسلمين . وسنة الله فى الأنبياء أن الله يجعلهم فتنة وبلاء لأهل زمانهم ، إما ليكرِّم بهم أهل زمانهم أو ينتقم بهم من أهل زمانهم . فمن الأنبياء من يقتله قومه ، ومنهم من يكرمه قومه .

سنة الله فى أوليائه :

١٠ – وأولياء المسلمين سنة الله فيهم كسنته فى الأنبياء السابقين . فقد يكرم الله بهم أهل زمانهم إذا وفق الله أهل زمانهم لسماع نصائحهم والاقتداء بهم ، أو يجعلهم نقمة إذا سلط أهل زمانهم على أوليائه سبحانه وتعالى . هذه سنة الله فى الرسل .

بطلان القول بصلب المسيح :

قال اليهود إنا صلبنا المسيح . ونعم صلبوا إنساناً ، ولكن من هم الذين صلبوه ؟ ومن هو الذى صلب ؟ هل الذين صلبوه كانوا يعرفونه ذاتياً حتى تكون شهادتهم صادقة ؟ وهل صلبوه نهاراً أمام الملأ ، حتى يكون الخبر متواتراً ؟ وهل صلبوه بحكم حاكم حتى تكون حادثة تاريخية ؟ لم يكن شيء من ذلك أبداً . خصوصاً والمسيح عليه السلام كان كثير الأتباع من العامة محبوباً لهم ، معظماً عند رجال الحكومة من الرومانيين ، والذى أحضره لليهود هو يهوذا الأسخريوطى ، ولما قبض عليه اختفى تلاميذه ولم يبق معه إلا يهوذا ، أما تلاميذه فتفرقوا وكتبوا الأناجيل المشهورة . وأما يهوذا فلم يعلم له خبر .

التأويلات المخجلة فى صلب المسيح :

ما هذا الكذب على التاريخ !؟ والكذب على الحقيقة ؟! والكذب على سنة الله فى رسله ؟! والتحمل لكل تلك المسئولية ؟! وما وقفت تلك الهمم عند هذا الحد حتى قامت فتأولت تأويلا يخجل العقول الصغيرة فضلا عن العقول الكبيرة ، ويسوِّد الوجوه فضلا عن القلوب . فتراهم يتأول الجاهل منهم : قضى الرب على نفسه بالخزى والذل والهوان ليخلص العالم من خطيئة آدم . ويقول الآخر : صلب الرب ابنه الوحيد ليفدى به العالم من خطيئة آدم . متى كان الرب جلت قدرته ظالماً حتى يخطىء آدم فيجعل الخطيئة لأبنائه ؟ ومتى كان الرب جلت قدرته عاجزاً عن أن يغفر لآدم خطيئته حتى خلصه من الخطيئة بصلب ابنه ؟ هذا الرب الظالم العاجز ليس هو رب العالمين

ما هى خطيئة آدم التى يَدَّعون أن المسيح صُلب من أجلها ؟!! :

ما هى خطيئة آدم التى بلغت مبلغاً حتى ظلم الخلق ، وعجز الرب عن خلاصه من الظلم إلا بقتل ابنه الوحيد ؟! لعل تلك الخطيئة أن آدم قطع يدى الرب ورجله أو أنزله من على كرسى عظمته ! أو ألف جمعية من الملائكة وقام ليحاربه بها وكان جميع أبنائه

معه فى تلك الحركة الجاهلية !! إن كانت خطيئة آدم هى هذه فآدم الذى هذه خطيئته ليس بجدنا ، والرب الذى تصنع معه تلك الخطيئة ليس بربنا . خطيئة آدم : هى أن الله أمره أن لا يأكل من شجرة التين أو الحنطة كما هو مبين فى التوراة ، فجاءه الشيطان فحلف لزوجته وخدعها حتى أكلت وخدعت آدم حتى أطعمته ، هذه كلها هى الخطيئة التى فعلها آدم . وكم للمسيح ظاهراً من خطايا لا تحصى : كان يضطجع ويطيبه بالطيب الباغيات ، وكان يجلس ويعصر قدميه بخدودهن البغاة ، وجاءه رجلان فشهدا على امرأة بالزنا وطلبا منه أن يقيما عليها الحد الذى فى التوراة ، فقال : يدينها من لا يعمل بعملها ، فانصرف الرجلان ، فقال للمرأة : انصرفى يدينك من يدين الناس . وأمثال ذلك كثير مما هو بالنسبة للتوراة أكبر الخطايا . تلك الخطيئة الصغيرة التى وقعت من آدم آخذه الله بها فوراً ثم غفر له .

وهذه الكتب السماوية جميعها مجمعة على ذلك ، ومجمعة على أن الله تعالى لا يؤاخذ الولد بذنب أبيه ، ولا الوالد بذنب ابنه ، ولا الجار بذنب جاره . وتعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً عن نسبة الظلم إلى جنابه العلى . فإذا كان أكل تينة أو أكل سنبلة من سنابل شجرة الحنطة تكون خطيئة كبرى لآدم ولجميع ذريته يعجز ربنا سبحانه عن أن يخلصه منها بكلمته ومغفرته وعفوه ، ويكون الرسل والأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام مخطئين ظالمين بعيدين عن الرب ، ليسوا أهلا لأن يكونوا رسلا ولا هداة لأنهم لم يخلصوا من خطيئة أبيهم آدم ، حتى جاء اليهود شركاء الله الذين قاموا فخلصوا آدم وذريته من الخطيئة بصلب ابن الله . فعجباً إذا كان آكل التينة يخطىء خطيئة يقع فيها هو وذريته الذين لم يكونوا معه عند الخطيئة ، فكيف تكون خطيئة من قام فقتل ابن الله ؟!! اللهم اغفر لى ذنبى واحفظنى من فساد العقول بتقليد الآباء ، ومن ظلمة القلوب من العصبية للدين والمذهب بغير الحق . إذا كانت العقول لم يتضح لها حقيقة من تلك الحقائق ببرهانها ، كيف تؤول هذا التأويل الذى يتنزه عنه من صنع له إلهاً من ذهب أو فضة ، ثم سجد له ؟ لأنا لو سألناه لقال : إنى أسجد له ليقربنى إلى الله تعالى الكبير الذى لا أراه ، وهذا التأويل دون تأويلهم فى الضلالة .

الحق أحق أن يتبع :

ما للإنسان يهوى بنفسه فى مهاوى التقليد ، ويرضى بأن يبوء بالخزى والكفر تعصباً لوالديه ولو ظهر الحق له جلياً ! ياأيها الإنسان : الحق أولى أن يتَّبع ، والعقل أحق بأن

تهتدى به وتزن به عقائدك ، وإلا فأنت مسكين تتعصب للباطل وتدعو إليه ، ويأتيك يوم وهو قريب فيتبرأ منك المسيح عليه السلام ، ويقف بين يدى ربه معلناً أنه قال فى الإنجيل إنى عبد الله صريحاً فى غير إصحاح ، وإنه مبشّر بالرسول الذى يأتى بعده يضع الحرب فى الأرض لأن المسيح يضع السلام . وبشر به فى افتتاح إنجيل يوحنا عندما سأله اليهود : ألمسيح أنت ؟ قال لا . ألرسول أنت ؟ قال لا . فأثبتوا أن التوراة تبشر بالمسيح وبالرسول الذى يأتى بعد المسيح ، والحق أحق أن يتبع . فإن الذى حفظ رسله السابقين من أعدائهم ، بعد أن ألقوهم فى النار ، أو بعد أن ألقوهم فى البحر الملح ، أو أرادوا أن يبيتوه فأهلكهم الله جميعاً وأنجى رسله ، قادر أن يرفع المسيح إليه ، وأن يهلك الذى دل عليه ، وهو يهوذا الأسحريوطى ، والحقيقة أنه هو الذى أهلكه الله وصلبه ، ورفع رسوله عيسى إليه .

محادثة العقل

طرق وصول الحقائق إلى العقل للحكم فيها : إما الحس الصحيح أو الخبر الصادق أو العقل الكامل . أنا أيها الإنسان لا أرضى أن أتلقى خبراً ينبنى عليه أصل من أصول الدين ، أو أساس من أسس الملك ، أو أساس مجد أو عائلة ، أو حصول تغيرات فى النظام الشمسى إلا بطريق من الطرق الثلاثة التى يجب أن تكون مؤيدة : إما بجميع الطرق أو بطريقين منها على الأقل .

بم وصل إليك صلب المسيح ؟ ومن أى طريق وصل إليك ؟ أوصل إليك من اليهود الذين قالوا صلبناه ؟ وهم إنما أمروا بعض أهل الطغيان والفجور من الذين ربما لم يسبق لهم رؤية المسيح أبداً ، فصلبوا رجلا وأخذوا أجرهم على العمل ، ليس هذا خبر يقبله العقل . أم جاءك من جهة الحكومة الرومانية خبر ثابت بالتواتر فى بطون التاريخ لعمل اقتضى صلبه ؟ أم جاءك فى الإنجيل قبل صلبه فى آية صحيحة عنه ؟ أم جاءك بالسند الصحيح عن حوارييه أنهم رأوه مرفوعاً على الصليب ميتاً ؟ كل ذلك لم يكن ، بل ولا بعضه . فإن يهوذا لما أخذ الأعوان الظلمة ودلَّهم على المسيح وقبضوا عليه ليلا كان القبض عليه نازلة على تلاميذه ، حارت منها عقولهم ، وطاشت منها أحلامهم فتفرقوا أيدى سبأ ، فمنهم من كان له أصدقاء من الرومانيين أهل السلطان فى بلاد مصر ففر إليها . ومنهم من كان له أصدقاء فى القسطنطينية فتوجه إليها ناجياً بنفسه . ولم يبق مع المسيح إلا يهوذا الأسخريوطى الذى أراد أن يجعل له يداً عند اليهود يرتفع بها شأنه ، فأراد القوى القدير الحكيم المدبر أن يهلكه كما أهلك من قبله ممن همُّوا بقتل رسلهم ، فأنجى المسيح ورفعه ، ومكن الأعوان من يهوذا فصلبوه .

هذا هو الحق الذى لا مراء فيه . وما اعتمد عليه من لا معرفة لهم بالطرق الموصلة إلى علم اليقين ، مما أوردوه من أن بعضهم رأى رؤيا منامية تدل على أن المسيح صلب ودفن وقام ورفع . وبعضهم رأى طائراً فى الجو يتكلم معه . لعل القائلين بهذا يجهلون تأثير الوهم على المجموع العصبى ، ويجهلون محاكاة الخيال للحوادث محاكاة تجعل الإنسان فى الحوادث العظيمة يتمثل عدوه هاجماً عليه وهو ماش فى الطريق فيضطرب ، أو يتخيل أن حبيبه واقف على بابه يناديه أن يفتح له ، أو أنه يتكلم معه . ومن قرأ أقاصيص الممرورين وأخبار من اختل توازن أبدانهم يعلم أن علم اليقين لا طريق له إلا الحواس

الصحيحة أو الخبر الصادق أو العقل . وأما الرؤيا المنامية ومحاكاة الخيال فى الحوادث الهامة وتمثيل الأوهام كل هذا ليس من الطرق التى تؤدى إلى علم اليقين فى حادثة بسيطة كونية ، فكيف تكون طريقاً لعلم اليقين فى أساس دينى أدى إلى فساد فى الاعتقاد وتأويل مؤدّ إلى تنقيص الجناب الإلهى ، وحرم احترام سننه الماضية والكذب على رسله عليهم الصلاة والسلام ؟ اللهم ألهم الإنسان رشده واجعل له نوراً تهديه به إلى الحق لينجو من هاوية الغضب وحطمة المقت ونار السخط بتركه العقل الذى يعقل الحق وتلقيه أصول الدين عن هواه وحظه وتعصبه الأعمى .

سبحان الله ، لقد أخبرنى من أثق به خبراً ربما كان مقرباً للحادثة أن الأعوان الذين أرسلهم اليهود للقبض على المسيح مع يهوذا الأسخريوطى ليلا توجهوا إليه وأزعجوه وشددوا عليه ، وحضر معه يهوذا إلى محل الصلب وكان معه آخر أحضر ليصلب لأنه محكوم عليه ، فلما أن أحضروا المسيح إلى محل الصلب غلبهم النعاس جميعاً فناموا ، فرفع الله المسيح وألقى شبهه على يهوذا الذى كان أشبه الناس به ، ولما كان الأعوان مكلفين بصلب إنسانٍ قياماً بما أوجبه عليهم كبار اليهود وربما كانوا من شيعة المسيح وأحبابه ، ولكنهم مأمورون قهراً بهذا العمل ، فقبضوا على يهوذا وصلبوه . وهنا أخبرنى قائلا : يجوز أن الأعوان لما أن قهرهم النعاس ولم يجدوا المسيح وصلبوا يهوذا وأدخلوه القبر خافوا أن يفتش الأحبار على عملهم فيروا الذى صلب غير المسيح فينتقموا من الأعوان ، فأخرجوا يهوذا من القبر وأخفوه فى مكان آخر . ويجوز أن يكون الأحبار أمروا بهذا العمل بدون أخذ أمر من الحاكم الرومانى فخافوا من تهيج الشعب عليهم بحصول تلك الحادثة فينتقم الرومان منهم ، فأخرجوا جثة يهوذا من القبر وأخفوه فى مكان آخر ، كل ذلك جائز يقبله العقل بلا ريب فيه ولا شك ، ولا يقبل العقل تقرير حقائق لم تقرر له بطريق من طرق العلم اليقينى خصوصاً إذا كانت تخالف سنة الله التى كانت من قبل .

أيها المدعى أن المسيح صلب
من ضل سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً :

ما الذى نلته من الكمالات بإثبات تلك الحقيقة ؟ هل سررت بإهانته وتسليط أعدائه عليه ؟ أو أثبتَّ معجزة للمسيح عليه السلام بأن اليهود أخذوه وآذوه وأذلوه وصلبوه رغم أنف أبيه ؟ هذه معجزة ، ولكنها تثبت أنه ليس رسولاً لله بل ولا صدِّيقاً ، لأن الصدِّيق يوسف عليه السلام اجتمع إخواته على قتله ورموه فى الجب فأنجاه الله وسلطه عليهم وأذلهم له وأحوجهم إليه ، وهم أنبياء الله وأبناء أنبيائه . فكيف يكرم الله صديقاً بأن أذل له أبناء إسرائيله ، ولا يكرم رسولا كريماً عليه بأن ينجيه من شر الكافرين ؟ ! .

مالك أيها الإنسان تقول الباطل ! فإذا ظهر لك الحق تعصَّبْتَ تعصب الأحمق الجاهل وأبيت إلا أن تجعل الباطل حقاً ، وقمت فانتحلت حججاً يأبى القط أن ينتحلها إذا خطف قطعة لحم منك يأخذها ويفر منك على الجدران ، كأنه يقول لك : أنا مذنب والمذنب لا يأمن جانب من عصاه ، فإذا ناولته القطعة اللحم أكلها فوق ثيابك ولو ضربته لا ينتقل عن ثيابك .

فعجباً للإنسان الذى هو أجهل من الحيوان يقع فى الضلال ، فإذا قامت عليه الحجة وظهر الحق جلياً ؛ أبى المسكين أن يُكَذِّبَ نفسه كأنه أكبر من الحق وكأن الحجة إنما تقام للكلاب والقطط والحمير ولا تقام للإنسان الذى هو أدنى منها ، لأن تلك الحيوانات لا تحتاج إلى إقامة الحجة ، ولكنها تشعر بالحق بنفسها . كفى أيها القلم فإن الإنسان حيوان مادام أن قواه الفكرية لا تخرجه عن حيطة المادة والعمل فيها لحظة وشهوته والتعصب للآباء والأهواء بل أقل من الحيوان ، إنما عليك أن تبين الحق وليس عليك أن تقهر الناس على اتباعه . أضرَّ الذين يدعون أنهم نصارى القول بأن المسيح صلب ضرراً أدى إلى محو الحق وإثبات الباطل ، بما تأولوه من الأباطيل ، وما تقولوه من الأوهام .

لم يأت المسيح بدين جديد سماه بالنصرانية :

وهنا أبين ما كنت بصدده ، وهو كيف اعتنق أهل مصر وسوريا دين النصرانية ولم تكن النصرانية ديناً ، ولم يدع المسيح إلى دين جديد غير دين موسى سماه باسم مخصوص هو النصرانية ، لأنه إنما جاء ليخفف عنهم ما فى التوراة من الأثقال فى المأكل والمشرب والملبس والسبت والعبادة والمعاملة ، ويغير ما وضعه الأحبار والكهان مما لم يكن له أصل فى التوراة كما جاء سيدنا داود وسليمان وزكريا ويحيى ، فإن هؤلاء الرسل عليهم السلام جاءوا لتقرير أحكام التوراة ، وبيانها ، ولم يجيئوا بدين جديد . كذلك المسيح عليه السلام لم يأت بنسخ التوراة ، وإنما جاء كما جاء جده داود وسليمان وغيرهما بالتخفيف لمناسبات التغير الذى حصل فى الإنسان ، ولكن لما اشتد عناد الأحبار حتى ادعوا أنهم صلبوه وتفرق تلاميذه عنه ، وكان أكثر حكام الرومان فى أورشليم يعظمون المسيح وتلاميذه ويتبركون بهم ، فتوجه كل واحد من التلاميذ إلى أصدقائهم ببلاد الرومان ، وحصل بعد رفع المسيح بأربعين سنة انتشار وصايا المسيح حتى بلغت بعض كبار الرومانيين .

سبب انتشار النصرانية فى سوريا ومصر :

قدر الله تعالى أن يحصل بين ملك الرومان فى القسطنطينية وبين اليهود ما يوجب الانتقام منهم ، فجمع وزراءه فقرروا أن يقهروا على العمل بوصايا المسيح ، فأرسل جيشاً يقهر اليهود على ذلك ، فأبوا وتمزقوا كل ممزق . ومن هذا الوقت عمل من بقى من سكان سوريا بوصايا المسيح وسموه دين النصرانية نسبة إلى ناصرة (المدينة التى ولد فيها المسيح عليه السلام ، وكذلك سبب انتشار الدين النصرانى فى بلاد مصر أن أهل مصر كانوا تبع الرومان ، فحصل بينهم وبين ملك الرومان حادثة أدَّتْ إلى الانتقام منهم ، فحكم عليهم بما حكم به على شعب إسرائيل ، وجرت الدماء أنهاراً فى هذا الحادث الذى يقصد بباطنه النقمة من المصريين وبظاهره قهرهم على الدين ولو سألت التاريخ عن حوادث الشهداء فى مصر الذين جعلوا افتتاح تاريخهم به حتى لا يغيب عنهم لأنبأك بتلك الفظائع التى تقشعر لها الجلود ، وتشيب لها الولدان ، ولو قال لك التاريخ إنه قتل من مصر وسوريا فى هذا الحادث الفظيع أكثر من مليون فصدق . لما أن أكرهوا على الدين النصرانى ما الذى جرى ؟ .

أصول الأديان السماوية :

معلوم أن لكل دين أربعة أصول : العقيدة التى يدين بها لربه ، والعبادة التى يشكر بها ربه ، والأحكام الشرعية التى هى القوانين المبينة لكيفية الأخلاق ، والمعاملات الفاضلة التى بها يحسن نظام العمران ، ويعيش الإنسان آنساً بالإنسان مساعداً عاملا فى سُنة ربانية . فكأن أسس الدين عقيدة فعبادة فأخلاق فمعاملة ، وبدون ذلك لا يكون ديناً ، بل يكون كرجل علم بأصل من أصول الدين فقام يعلمه الناس كالعلماء بالتوحيد ، والعلماء بالفقه الذى هو القوانين ، وعلماء النفس الذين يعلمون الأخلاق ، وعلماء العبادة الذين يعلمون الناس الصلاة والصيام والزكاة والحج . فلو أن المجتمع الإنسانى لم يتكمل بتلك الأصول الأربعة لخرب العمران وهلك العالم .

عقيدة الدين النصرانى وبيان فسادها :

هذا كتاب المسيح عليه السلام الذى هو الإنجيل ، ما هى العقيدة التى قررها فيه تقريراً يقبله العقل كما هو الشأن فى تقرير العقائد ؟ لم يقرر فيه عقيدة ولكنه كتاب كأقاصيص ؛ تاريخه ووصاياه المفيدة فى الأخلاق وأعماله الخارقة للعادة التى ربما لا يصدقها من لم يرها بعينى رأسه . هذا ما فى الإنجيل ، اللهم إلا ما جعلوه عقيدة من كلمة الافتتاح وهى باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد . هذه الكلمة لم تقرر عقيدة ولم تبينها ، وإنما هو يستعين بمعان على عمل ما من الأعمال كما يقول المسلم عند دخوله فى عمل شاق : بسم الله الرحمن الرحيم ، فهل بسم الله الرحمن الرحيم عقيدة قبلها العقل وسجد لها ؟ لا والله ، لم يسجد العقل لبسم الله الرحمن الرحيم إلا بعد أن قرر له القرآن البراهين الساطعة على توحيد الله ، والأدلة الناصعة على تنزيه ذاته عن الولد والوالد والنظير والمثيل ، ثم قال أستعين باسم أو أتبرك باسم هو الله الرحمن الرحيم . ما أجملها وأحلاها أمام بصيرة العقل ، وما أخفها على اللسان وأرقها على الآذان ، أن يتبرك باسم هو الله الرحمن الرحيم ، وما أثقل على الأذن وعلى اللسان ، بل وعلى العقل أن يقبل الاستعانة باسم هو ثلاثة أشخاص كل شخص مستقل ، لأنه مقول بالإضافة . أب وابن وروح . ثم يقول للعقل : اقبل قهراً لا بحجة ، وغصباً لا ببرهان أن الثلاثة إله واحد . هذه ليست عقيدة مقررة للعقل ، هذه إما أن تكون أساسا من أسس التثليث الذى كان عليه الفراعنة وكثير من الأمم القديمة لأنهم كانوا يزعمون أن

الآلهة ثلاثة وأنهم واحد : الآب والابن والروح . فيقولون : أوزيس الآب ، وأمون راع الابن ، وأوزيريس الروح . ويجعلون ذلك كناية عن الشمس الاب ، والماء الإبن ، والأرض أو الهواء الروح أو الأم ، وهى عناصر الحياة . وإما أن تكون مأخوذة من أصل عبرانى لم يفقهوا معناه المجازى ، فترجموه إلى اللغات الأخرى بمدلوله الحسى ، فإن فى الكتب السماوية ألفاظاً يجب تأويلها إلى غير ما وضعت له لفظاً إذا كان ذلك مؤدياً إلى نقص فى الجناب المقدس . وليس الأمر ببعيد عنا ، فإنا لو نظرنا إلى تراجم القرآن باللغات الأجنبية نرى كثيراً من الألفاظ التى وضعت لتدل على لازمها أو على ما تتضمنه ، لا لتدل دلالة مطابقية فترجموها بما يدل عليها مطابقة فأدى ذلك إلى فهمهم فى القرآن فهماً لا يفهمه الأعجمى البعيد عن فهم بلاغة اللغة العربية وبديع أساليبها .

وكذلك لما أن ترجم الإنجيل من العبرانية أفسدوا معانيه العالية وأساليبه البديعة وساعد على ذلك أن كل عبرانى كان يبغض المسيح لأنه عندهم ابن زنا ، ويكره أن يقرأ تاريخه فكيف يرضى أن يصحح ترجمة كتابه الذى يكون ديناً يتدين به الناس وهذا أصعب عليه من الحرق بالنار ؟ ولم نسمع أن جماعة من الذين يدعون أنهم نصارى فتحوا مدرسة لتعليم اللغة العبرانية حتى يتعلموها ويتفننوا فيها ليمكنهم أن يفهموا سر باسم الآب والابن والروح القدس ، التى نظلم جوهرة العقل اللطيف إذا تصورها خوفاً من أن ينسجن فى ظلمة الحظ والهوى . ولو أننا كشفنا عن العقول الإنسانية فى الأجسام الحية المعتقدة تلك العقائد الباطلة ، لرأينا العقل فى سجن ظلمة من الحظ والهوى والعصبية الجاهلية ضئيلا منكمشاً يبرأ إلى الله تعالى الذى جعله ميزاناً للحقائق من تلك النفوس الخبيثة التى هى فى الهياكل الإنسانية ، هذه هى التى يقولون إنها عقيدة .

البحث عن تلك العقيدة

هذه الكلمة التى يسمونها عقيدة هى افتتاح الإنجيل الذى ينسبونه إلى يوحنا المعمدان كما يدعون .

من هو يوحنا المعمدان ؟ هو يحيى بن زكريا عليهما السلام المذكور فى التوراة باسم (ملاخى) وهو رسول كريم على الله تعالى جاء بمعجزة فى حمله ووضعه لا تقل عن معجزة المسيح فى حمله ووضعه ، لأن زكريا عليه السلام كانت عنده امرأة عاقر كما هو صريح التوراة وطال عمره حتى بلغ سن اليأس من أن يكون له ولد . ذلك لأن امرأته عاقر ، وأنه حرم القوة التى بها نيل هذا الأمر حتى إن الله يشره على لسان جبريل عليه السلام فجعب من بشارة الله له ، لأن حاله هو وزوجته لا يقبل العقل أن يكون لهما ولد . ولكن الله تعالى قادر أن يوجد الشيء من لا شيء ، فكيف لا يوجد ولداً من امرأة عاقر ؟ ورجل يائس بلغ به ارتخاء مفاصله ويبس المادة الغريزية مبلغاً جعله كالميت وامرأته كأنها ميتة لأنها عجوز بلغت سن اليأس ؟ .

منزلة يحيى من المسيح عليهما السلام :

إن المعجزة التى ظهرت لعيسى ظهرت بأجلى مظهرها فى يحيى (يوحنا) ، لم يكن عيسى أولى من يوحنا فى هذا المجد ، لأن يحيى رسول الله وعيسى رسول الله عليهما السلام ، والله أعطى يحيى الرسالة صبياً ، وبلغ من الثقة به عند قومه أن جعلوه رئيس المعمودية وهى وظيفة كمل الرسل عليهم الصلاة والسلام . وأجمع كل شعب إسرائيل على أن المعجزة التى أظهرها الله ليحيى من أكمل المعجزات ، لأن حمل بنت شابة ليس بعجيب كحمل امرأة عاقر يئست من الحيض من رجل ارتخت مفاصله ويبست مادته ، وأكله الهرم حتى صار بالنسبة لهذا كالميت ، أقول : لم يكن المسيح عليه السلام أولى من يوحنا (يحيى) فى هذا المجد ، لأن يحيى عمَّد المسيح عليهما السلام ، فكان ذلك برهانا على منزلة يحيى من المسيح .

إثبات البشائر لسيدنا محمد فى الكتب السماوية :

ورد فى إنجيل يحيى من قوله : إن الذى يأتى من بعدى يكون قدامى لم يرد فى التوارة منه شيء . وها هى التوراة بين أيدينا ، وإن صح بالسند الصحيح الذى يؤدى إلى العلم اليقينى من طرقه العقلية ، فالذى يأتى بعده ليس المسيح ، لأن المسيح لم يأت بعده لأنه

أتى فى زمنه مصاحباً له ، والذى يأتى بعده بلفظ الفعل المضارع الدال على الاستقبال ولفظ بعد الدال على طول الزمن هو الرسول الذى بشر به إبراهيم عليه السلام وبشرت به أسفار التوراة هو المسمى (مَسّيا) ، يعنى الذى يحمده الناس أجمعون (محمد) عليه الصلاة والسلام . خصوصاً وأن يوحنا المعمدان هذا طال عمره بعد رفع المسيح عليه السلام إلى السماء كما يقول النصارى ، لأنه مثبوت عندهم أنه أرسل رسالة ثانية بنص الرؤيا التى كتبوها فى ذيل التوراة المشهورة التى رأى فيها أن الرب خروف وقتل ، فكأنه بعد المسيح ، ولم يكن المسيح بعده ، وهو يقول : الذى يأتى بعدى .

تلك المباحث الحقيقية برهان حق على أن تلك البشائر التى فى التوراة والإنجيل ، لم تكن بالمسيح عليه السلام ، وإنما هى بالرسول الذى يأتى بعد المسيح ويصير قدام الكل ، لأنه يكشف للعالم أجمع طريق السعادة الأبدية والنجاة السرمدية ، التى لا تكون إلا بالتوحيد الحقيقى والعبادة الخالصة ، والأخلاق الطاهرة والمعاملة الفاضلة . ولم يأت رسول من الرسل قبله بتلك المعانى كلها مجموعة فى عقد واحد مبينة واضحة كالشمس فى رابعة النهار . وأنه عبد ورسول لم تختلف القلوب ولا العقول ولا الألسنة فى دينه عن الاعتقاد أنه عبد مرسل من قبل الواحد الأحد ، المنزه عن الوالد والولد والنظير والمثيل . وليست البشائر المصرحة باسمه ومعناه بقليلة . اقرأ دعوة الخليل لولده إسماعيل ، واقرأ بشرى موسى بأنه يخرج من بنى عمنا كذا وكذا . ومن هم بنو عمه ؟ هم بنو إسماعيل ، واقرأ واقرأ واقرأ إن شئت فى التوراة . أفعمت الكتب السماوية بتلك الحقائق ، ولكن الإنسان يعميه التعصب للآباء والميل إلى الأهواء والطمع فى الرياسة والجاه عن اتباع الحق والعمل به ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين .

هذه الكلمة ليست كلمة المسيح :

هذه الكلمة التى قالها يوحنا التى هى باسم الآب والابن وروح القدس الإله الواحد ليست هى كلمة المسيح ، ولكنها كلمة رسول مثله بعثه الله كما بعث المسيح . وقد كان فى عصر المسيح رسل كثيرون منهم زكريا وابنه وغيرهما وكلهم كانوا يدعون إلى العمل بشريعة موسى عليه السلام ، ويبينون المبهم ، ويفصلون المجمل . وقد يأمرون بما ليس فى التوراة أو ينهون عما هو فيها من الأحكام التى اقتضت الحكمة الإلهية نسخها ، او اقتضت تجديدها ، لأنهم مكملون لا مشرعون. كسيدنا داود وسليمان عليهما السلام . فإذا كانت تلك الكلمة كلمة يوحنا المعمدان وهو رسول كالمسيح لا يقل عنه بشيء

لأن المعجزة هى حمله ووضعه وإعطاؤه الرسالة صبياً جعلته لا يقل عن المسيح عليه السلام .

وعلى فرض صحة تلك الكلمة عنه فكأنه يقول : أنا ابن الله . لا يقول : المسيح ابن الله . لأن هذا رسول وذاك رسول ، لأن يوحنا رسول والمسيح رسول ، والرسل لا يأتى رسولا من قِبل رسول ، وإنما يأتى من قِبل الله تعالى . ومن يقول إن الرسول يأتى من قبل الرسول فقد أخطأ وجهل ، وإنما الذى يرسله الرسول إلى الناس يقال له مندوب من قبل فلان أو خليفة فلان أو تلميذه أو حواريه أو وال من قبله ، ولا يقال رسول بهذا الإطلاق إلا لمن أرسله الله تعالى . إذا كان يوحنا رسولا من قبل الله تعالى فكلامه خاص بنفسه .

وقد أخبر الرسول داود عليه السلام فى المزمور الثانى الذى نسبه إليه اليهود أنه ابن الله قال فى الآية السابعة : إنى أخبر من جهة قضاء الرب قال لى : أنت ابنى أنا اليوم ولدتك ، اسألنى فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصى الأرض ملكا لك تحطمهم بقضيب من حديد مثل إناء خزف تكسره . فداود عليه السلام يقول : أنا ابن الرب كما أخبر عنه اليهود ، ثم يدعون أن عزيراً ابن الرب والنصارى يقولون إن المسيح ابن الرب الوحيد ولم يقل ذلك المسيح نفسه ، وإذا كانت الحقيقة خفية والبرهان مفقودا كيف تظهر ؟ والأولى أن يقف العقل موقفاً يدافع عن الحقيقة حتى يقررها بطرقه الصحيحة .

قال يوحنا فى شهادته : إنى أنا لست النور بل جئت أشهد للنور ، النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان آت إلى العالم وخاصته لم تقبله ، وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله . هذه هى شهادة يوحنا ، ومعلوم أن المسيح عليه السلام كان معه فى زمن واحد ، وأنه عاش بعد المسيح كما يقولون ، وأن المسيح لم يعط من قبلوه سلطانا ، لأنه كما يقولون قدر على نفسه الخزى والذل والهوان ليخلص العالم من خطيئة آدم . وخلص العالم من خطيئة آدم بصُلبه ، فإذا كان المسيح أصابه الخزى والذل والهوان كما يقولون ، وصلب كما يقولون ، فكيف يعطى من قبلوه سلطانا وهو لم ينل هذا السلطان ؟ بل الذين قبلوه أصابهم من الذل والخزى والهوان أكثر مما أصابه بالضرورة ، وكيف يعيش الجسد بعد القلب ؟ .

وأما الذى أباه قومه وقبله غير قومه وأعطاهم سلطاناً حقيقياً فهو محمد ﷺ ، لأن أعمامه عادوه وآذوه حتى أجمع بنو هاشم على معاداته إلا ولد صغير هو على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ورجل هو حمزة ، وقبله رجل رومى (صهيب) ، وآخر فارسى

(سلمان) ، وآخر حبشي (بلال) وآخر نوبى (حارثة) ، وأبو رافع . وكل هؤلاء بلغوا من السلطان مبلغاً حتى صارت تخشع القوب لذكراهم ، وتنحنى الرؤوس لمشاهدتهم ، ويخرج الخليفة من داره لملاقاتهم . وقبله رجل من تيم ، وآخر من عدى وجماعة من الأوس والخزرج . فما مضى زمن يسير حتى أصبحوا ملوك الأرض وسادة العالم .

هذا الرسول حقا هو الذى أعطى من قبله السلطان ، وجعل من اتبعه أبناء لله تعالى كما قال يوحنا ، بمعنى أن العصبية الجاهلية بالإنسان صارت تحت النعال ، فصار نسب الله هو النسب ، وحسب الله هو الحسب ، وصار المسلم الكامل الإسلام لا نسب له ولا حسب له إلا الشرف بالتقوى ، والعز باليقين والتجمل بالخشوع ، والحب والرغبة فى الله ومن الله ولله . انظر إلى كلمة يوحنا فى إنجيله : فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان فى البدء . تأمل فى تلك الكلمة بعين البصير الناقد ، ثم اسأل عقلك قائلا له : هل تقبل تلك الكلمة مع ما فيها من التناقض والتباين الكلى ؟ ما هذا الخلاف ؟ كلمة كانت عند الله ، ثم كلمة هى الله ، مع أن سفر التكوين يقول فى البدء : خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه القمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نورا فكان نوراً بين إصحاح سفر التكوين التوراة وبين كلمة يوحنا تباين ، يفيد أنه ليس بكلام الله ، ولا بكلام رسل الله . لأن سفر التكوين يقول : قال الله ليكن نوراً فكان نوراً وروح الله يرف على وجه الماء صريح قول القرآن الشريف (**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**)[1] أيها العقل لم تكن تلك الآيات من الآيات التى يجب فيها التسليم بلا بحث لأنها آيات تكوين ولو أن الأمر من غير الله وغير رسله لاعتقدنا فيه الاختلاف . ولكن إذا جاء من الله سبحانه ومن رسله عليهم الصلاة والسلام يجب أن يكون مطابقاً للعقل موافقاً له سائراً معه فى طريق واحد .

بيان أن المسيح عبد ورسول كبقية الرسل :

ثبت لنا جلياً من هذا أن المسيح عليه السلام عبد جعله الله آية كبرى كما جعل يحيى ابن زكريا آية كبرى مثل آية المسيح ، وجعل آدم آية من جلائل الآيات لأنه خلقه من طين ، فلا فرق فى حضرة القدرة بين أن يخلق شيئاً من لا شيء ، وأن يخلق شيئاً من

(١) سورة هود آية ٧ .

شيء لم يخلق منه عادة ، وأن يخلق شيئاً من شيء يخلق منه عادة لكن بغير كمال المعدات . كل ذلك أمر هين على العقل إذا تصور القدرة تصوراً ما . وإذا كان المخلوق من شيء يخلق منه عادة مع نقص فى المعدات يكون ابن الله ، فالأولى أن يكون المخلوق من لا شيء هو الله ، كالشمس والقمر وبقية الكواكب والأرض .

سبحانك اللهم وبحمدك ، تنزهت وتعاليت عما يصفك الواصفون ، وتقدست عما ينتحله لك المنتحلون ، سبحانك علواً لذاتك الأحدية ، وتنزيهاً لكمالاتك الربانية . كيف تتخذ ولداً وأنت الغنى عن كل من سواك وماسواك ، والكل مقهورون لقهرك ، مربوبون لعزتك ، فقراء إلى جنابك العلى . تحيى من تشاء وتميت من تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير . الملائكة والرسل عبيد لذاتك ، أذلاء لعزتك . وأنت سبحانك الإله الواحد الأحد ، المنزه عن المثيل والنظير والوالد والوالدة . أسألك يامجيب الدعاء أن تهب لنا نوراً فى قلوبنايملؤها يقيناً حقاً ، ونوراً فى عقولنا يستبين لنا به طريق الوصول إليك . وسبيل القرب منك إنك مجيب الدعاء .

المسيح لم يجعل له دينا خاصا :

إلى هنا لم نتكلم فى روح الموضوع الذى نقصده ، وإنما بينا أن المسيح عليه السلام عبد ورسول كبقية الرسل عليهم الصلاة والسلام . وأن الله تعالى أكرمه بما أكرم به رسله السابقين ، من أنه سبحانه سلطه على أعدائه ولم يسلط أعداءه عليه بل حفظه حتى رفعه إليه ، وأنه عليه السلام جاء متمماً للتوراة لا ناسخاً لأحكامها ، لأن الإنجيل عبارة عن أقاصيص تاريخية للمسيح عليه السلام ، وعن أخلاق فاضلة لم تبين فى التوراة ، وعن إثبات أنه عبد مسكين بما تقدم من الأدلة . وأنه لم يأت بدين اسمه النصرانية ، ولم يجعل له ديناً خاصاً لأنه قال : أنا ما جئت لأهدم الناموس وما جئت لأضع حرباً ولكنى جئت لأضع سلماً . ولا شك أن من جاء لينسخ الناموس الذى قبله لا ينسخه إلا بالحرب . وإليك إثبات ذلك فى أسفار سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا إبراهيم وسيدنا نوح وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام . وما يدعيه النصارى من أن هناك ديناً يسمى النصرانية قول غير صحيح . لأنه لابد لمتبع المسيح عليه السلام أن يعمل بأحكام التوراة جميعها ، تاركا ما أمره المسيح بتركه ، ويزيد عليها ما أمره المسيح بالزيادة عليها . وبذلك يكون مقتدياً بالمسيح عليه السلام : ولكنهم لما أن ادعوا أنه دين مستقل

احتاجوا إلى العبادات والعقيدة والمعاملات ، فادعى قوم أنهم رأوا أحلاماً تدل على تعاليم يلزم أن يعملها المنتسب إلى النصرانية ووضعوا تعاليم الكنائس . فتركوا ما هو صريح من عند الله تعالى مما ورد فى التوراة ، ومكث العالم فى ظلمة الهوى والحظ وتقديس بعض الرجال حتى تنورت العقول تنوراً ما ، بما أشرق على قارة أوربا من الأندلس من أشعة الأنوار الإسلامية ، التى أيقظت تلك العقول الخامدة من سجن ظلمتها . لكن كانت تلك الأشعة منكسرة على كثائف ظلمات بعضها فوق بعض ، فأضاءت حوالى تلك الظلمات ، ولم تخترق كثيف تلك الطبقات لأنها لو نفذت من تلك الطبقات لأشرقت شمس الإسلام مضيئة لهذا الأفق قال تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ الله أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً** ﴾[1] فرفضت تعاليم الكنائس ورجعت إلى الإنجيل ، فظهر للعقول الكاملة أن الإنجيل تكملة للدين الموسوى ، ولم يوضع لينسخ أحكام التوراة ، فصاروا فى حيرة : إن رجعوا إلى التوراة واقتدوا بأحبار اليهود أثبتوا أن المسيح ابن زنا ، وإن وقفوا عند الإنجيل اختل نظام الدين لأنه أخلاق صرف . وكان الأحرى بهم بعد أن نبه العلم عقولهم إلى الحق أن يرجعوا إلى القرآن الذى يقول : إن المسيح كلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم .

لا يسعد بنو الإنسان إلا بالرجوع إلى القرآن :

القرآن المجيد أثبت كمال المسيح وأثبت كمال أمه ، وأمر المسلمين بالإيمان به ، وجاء القرآن بما فى التوراة وما فى الإنجيل وبما فى كل الكتب السماوية الأخرى ، ثم كمل الله أحكامه التى يحتاج إليها النوع الإنسانى بأجمعه أين كان ، وكيف كان ، وحيث كان ، كمالا حقيقياً ، بحيث أن القرآن المجيد ينطبق على كل مكان وزمان . ومنه تستمد المدنية الحقيقية والحضارة الحقيقية قوامها ، وبه تبث روح الفضائل الحقيقية والكمالات الحقيقية فى المجتمع الإنسانى بأجمعه ، فكان الواجب على من استنارت عقولهم بنور العلم أن يصغروا أمام الحق تعظيماً له ، وأن لا يتكبروا على الحق لأن الحق هو المقصود لأهل العقول الكاملة .

وما يضرنا لو كانت نجاتنا على يد محمد ﷺ وهو إنسان أرسله الله رسولا كما هى عادة الله وسنته ؟ وما الذى جعل بعض الناس يكرهون محمداً ﷺ ويحبون عيسى وموسى عليهما السلام : ألنسب ؟ لا . لأن الإنسان محتاج إلى النجاة والسعادة ، وكل

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٥.

من جاءه داعياً إلى النجاة والسعادة يسارع إلى القبول منه . وإنما هى أحكام بعقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق يأتى بها الإنسان العاقل البالغ ويقول : إنى رسول الله إليكم ، فيطلبون منه الحجة على ذلك فيأتى بالمعجزة وهى عمل خارق للعادة فى قوة (صدق عبدى فاتبعوه) ، فما يبقى على الإنسان العاقل إلا أن يتبع رغبة فى السعادة الحقيقية . وما من رسول من الرسل إلا وجاء مدّعيا هذه الدعوى وينكر عليه أهله حتى يقيم لهم الحجة ، فيتبعه من يهديهم الله ، ويعاديه من يضلهم الله . وقد جاء هذا الرسول الكريم على الله الذى بشر به الرسل فى أسفارهم وتمنوا أن يدركوا زمانه ويحملوا حذاءه .

جاء ﷺ بما ابتهجت به النفوس ، واطمأنت به القلوب ، وعقلته العقول بقبول مسلمة سالمة ، حتى ملأ الأرض عدلا ونوراً ، مما تمثله الخيال مثالا سجد أمامه إجلالا لما جاء به هذا السيد ﷺ ، وخشع العقل إكباراً لما بينه له ﷺ وأقامه له من البراهين .

نظرة فى أحوال النصرانية

لما أشرقت تلك الأنوار المحمدية على العالم بأجمعه ، سارع العقلاء من كل أمة إلى الحق ، وأبى الملوك والرؤساء الدينيون لا جحداً للحق وإنكاراً لكمالاته ، ولكن حرصاً على الملك والسيادة . ولعن الله الطمع والأمل ، كم أهلكا صاحبهما . كان العاقل صاحب الرياسة تنفذ أنوار الدين الإسلامى إلى سويداء قلبه وكمالاته تنقش فى نفسه ، فيهم أن يعلن إسلامه فيقوم الطمع والهوى حجاباً بينه وبين الحق . ومكث العقلاء والحكماء من العالم بأجمعه يسارعون إلى اعتناق الإسلام ، ويقيمون الحجج أنه الدين الحق ، حتى حصل للمسلمين الميل إلى الدنيا والرغبة فيما فيها ، فتسلط عليهم العدو الشيطان ، وألقى فى قلوبهم الحسد والبغض لبعضهم ، فاشتغلوا بأذية بعضهم وتركوا العمل للمحافظة من عدوهم حتى قام عدوهم وناموا ، وقوى وضعفوا ، ولم يقم إلا بنور الإسلام ، ولم يقو إلا بروح الإسلام التى تركها أهل الإسلام ، ولكن هذا العدو اللدود خاف أن يتنبه المسلمون لكمالاتهم الدينية ، وللأنوار القرآنية ، فتحيى الأجسام من نومة غفلتها ورقدة جهالتها ، فأسرعوا إلى عمل الجمعيات للدعوة إلى النصرانية ، وتنقيص تلك الكمالات الإسلامية . والحقيقة أنها مكيدة يريدون بها أن يجعلوا أهل هذا العصر يتركون العمل بحدود الدين ، ويقلدون أعداءهم فيما يدعونهم إليه ، مما يسمونه حرية ومدنية ، التى هى إباحة الفحشاء والمنكر ، وترك العمل بالدين .

مثال الدعاة إلى النصرانية :

مثالهم كجماعة من بنى الإنسان عاشوا فى كهف محاط بغابة ملتفة الأشجار عمراً طويلا لم يروا أشعة الشمس أبداً ، حتى قدر الله تعالى أن يرتفع الماء يعم الكهف فاضطروا إلى الخروج من الكهف وقطع الأشجار ، ولما أن خرجوا خارج الغابة ووقع بصرهم على الشمس كادت أبصارهم أن تعمى من شدة النور ومستهم حرارة الشمس التى لم يتعودوها فأمرضتهم ، فقالوا : إن عدونا الحقيقى هو الشمس لا الماء الذى ارتفع حتى أخرجنا من غابتنا ، وقاموا يرمون الشمس بأن نورها وحرارتها وقرصها نقائص ومضار بحماقة وحدّة وغيظ ، وهم يجهلون أن الغابة التى كانوا فيها لولا أن الشمس كانت تشرق عليها لما أمدتهم بثمارها ، وأن الماء الذى كانوا يشربونه لولا أن الشمس

تذيبه من على قمم الجبال ليسيل ويجرى إليهم لماتوا ظمأ ، ولولا أن الشمس ترفع درجة الحرارة ليتوسط الجو لهلكوا من البرد . كل تلك غفلوا عنها وظنوا لجهلهم أنها نقائص وقبائح ، وقاموا بين سكان البلدان والبوادى يذمون الشمس ، ويدعون الناس أن يعيشوا فى الكهف والغابات الملتفة بعيداً عن الشمس المضرة ، والذين يعلمون خيرات الشمس وفوائدها ينظرون إليهم نظر المشفق عليهم ، لأنهم لم يعلموا أنهم كانوا فى ظلمة بل اعتقدوا أنهم لا عقل لهم . لأن الذى يذم مفيض الخير الحقيقى على ما دون فلك القمر بل وعلى فلك القمر بل وعلى كل الكواكب ، لا يذمه إلا مجنون لا يميز بين الخير والشر ، ولا يدعو أهل النور إلى الظلمة إلا من فسد عقله . وإليك شرح هذا المثال لينطبق تمام الانطباق على الحقيقة ونفس الأمر ، والله أسأل أن يشرح صدرك أيها الإنسان إلى الحق حتى تنبلج أنوار الحق لعين بصيرتك وأسرار الحقيقة لعقلك ، فتسلم لله رب العالمين .

حياة بنى الأصفر

معلوم أن بنى الأصفر عاشوا هذه القرون الطويلة فى مهاوى الجهالة وتيه الضلالة ، لم يبعث الله منهم رسولا ، ولم يقم منهم عالماً مفكراً . لا فرق بين شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ، إلا ما ناله سكان القسم الجنوبى منها ، بسبب مجاورتهم للشرق الذى هو مهبط الوحى ومعدن العلم والحكمة . وكان ذلك قاصراً على أفراد قليلين من اليونانيين الذين كانوا تلامذة للمصريين ، وقاموا بعد أن خرب قمبيز (ملك الفرس) مصر ، وقتل العلماء الذين كان أساتذتهم الأنبياء ، فإن سيدنا الخليل عليه السلام دخل مصر وقابل فرعون بها المسمى (طوطيس) وقبل منه هديته هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، وتولى إمارة مصر يوسف بن يعقوب بن الخليل عليه السلام . وأرسل سيدنا موسى عليه السلام إلى مصر من قِبل الله تعالى ، فكأن النور الذى كان مشرقاً فى بلاد مصر من الحكمة كان مصدره النبوة ، وهذا النور الذى نبه أفكار القدماء إلى النظر فى خواص الكائنات والبحث عنها ، وقد بلغ تعظيم الشرق لنفسه مبلغاً حتى كان إذا سلم على اليونانى يرى نفسه أنه تنجس نجاسة أخلاق ومعرفة ، لأن الشرق فى الحقيقة ونفس الأمر مهبط الوحى الإلهى وروض العلم الزاهر الزاهى .

وتلك الأنوار العلمية التى انتقلت من مصر إلى اليونان ظهرت فى بلاد اليونان علمية لا عملية بانحطاط مصر حتى ظهر العرب ، وأشرقت عليهم أنوار الوحى وأسرار النبوة ، فرجعت الحكمة لأصلها ، والدر إلى صدفه ، وصارت الحكمة علماً وعملا بما قامت به الأمة الإسلامية . ومن قرأ كتب اليونان الحكمية لم ير منهم مجرباً واحداً قام ليحيى الحكمة العملية بل يجد جولان فكر مقيد بظلمات وهم تطوف حوالى سراب تظنه ماء إلا ما وضعه بعضهم من النظريات الهندسية المأخوذة من مبادىء علم المساحة وقوانينها المصرية .

كان بنو الأصفر كأنهم ليسوا من بنى الإنسان ، حتى اخترق تلك البحار رجال فينيقيا لجلب الكهرمان وحاصلات البحر . ولما أن تنورت بالعلوم المصرية وكان ملوك المصريين وغيرهم يهجمون عليهم كالسيل العرم فيرجعون بالغنائم ، حتى قام الشرق على الشرق ، فضعفت قوة الشرق وتنبه اليونان والرومان تنبهاً جاهلياً ، وقاموا للاستيلاء على بلاد الشرق بالظلم والقوة القاهرة ، لا دين لهم إلا أنهم يقدسون بعض الكواكب والأحجار ، بما وصل إليهم من عقائد الآشوريين والبابليين والكلدانيين والفرس

والمصريين . ومكثوا فى تلك الجهالة العمياء حتى احتلوا شمال أفريقيا وآسيا واختلطوا بالشرق ، ومنه أخذوا يتعلمون الصنائع والفنون الشرقية حتى اعتنق الملك الرمانى الدين المسيحى بعد أن قهر اليهود والمصريين عليه ، ولكنه لما أن اعتنق المصريون الدين المسيحى جعلوا التثليث الذى هو دينهم الأصلى أساس الدين المسيحى ، لأن التثليث دين يدين به العالم من خمس آلاف سنة تقريباً .

التثليث والذين يدينون به :

إن دين البوذيين فى بلاد الهند هو التثليث الذى يسمونه الثالوث المقدس ، وله تمثال فى بلاد الهند مرموز له برأس إنسان بثلاثة أوجه ، وفى (نينوا) عاصمة مملكة آشور معبد للتثليث وفى كتاب سكان أوروبا أن بنى الأصفر القدماء تلقوا العقيدة الصنمية عن الأمم المجاورة لهم ، فكانوا يعتقدون أن الإله ثلاثة أقانيم قبل المسيح بقرون طويلة .

والبراهمة فى الهند لهم إشارات فى هذا الثالوث المقدس ، تكاد أن تكون أخلاقية أكثر منها اعتقادية ، وذلك قبل المسيح بقرون طويلة . وقد وجد فى بعض الآثار الهندية صنم له ثلاثة رؤوس قديم جداً إشارة إلى الثالوث المقدس . أما أكثر سكان الصين واليابان الذين هم البوذيون فيعبدون إلهاً مثلثا يسمونه (فو) ، ويقولون هو واحد له ثلاثة أشكال .أما المصريون القدماء فإن التثليث أساس دينهم ويرمزون عنه بجناح طير وصقر وأفعى ، وقد جعلوا صوراً ثلاثة للتثليث كما تقدم .
كان كهان منفيس بمصر يعلمون التلاميذ هذه العقيدة : الأول خلق الثانى ، والثانى خلق الثالث ، والثلاثة خلقوا العالم . واعتقاد التثليث أمر دار مع بنى الإنسان دورة حتى انطبع فى خيالهم كما ينطبع الخاتم فى الشمع .

بيان جهل دعاة النصرانية بأصل الدين المسيحى :

لما أن قام الدعاة يدعون الناس إلى وصايا المسيح وتعاليمه لم يكونوا على بينة من كمال الدين وأسسه ، لأن المسيح عليه السلام لم يأت بدين تام النظام والقوانين ، ولكنه أتى بوصايا كمالية للتوراة . وكان أهل التوراة أعداء له ولشيعته ، وكان الذين اتبعوه أكثرهم من غير اليهود ، بل كانوا من أعداء اليهود الذين أحبوا المسيح بغضاً لليهود وانتقاماً منهم ، لا رغبة فى المسيح ودينه . فقاموا يدعون الناس إلى ما جاء به من الوصايا ، وأعانهم على ذلك سيف دقلديوس (ملك الرومانيين) ، الذى سل سيف النقمة على

مصر وسوريا ، لا لهدايتهم بل للانتقام منهم ، وجعل الدين محور سياسته وسلم نيله مراده ، حتى قهرهم على اعتناق الدين الذى ليس ديناً فى الحقيقة ونفس الأمر ، ولكنه وصايا وإرشادات لتزكية النفوس وتطهير الأخلاق تكملة التوراة ، كما هى عادة الله فى كل زمان ، حتى يرسل رسوله الأعظم خاتم رسله بما لا حاجة بعده إلى البيان .

مزج العقائد الصنمية بالوصايا والتعاليم المسيحية :

تلقى الناس تلك الوصايا والتعاليم ووجدوها خالية من العقائد والعبادات والمعاملات ، ووجدوا الكلمة التى لا ندرى معناها فى العبرانية ، وهل ترجمت ترجمة يوثق بها أولا ؟ وهى باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد ، الكلمة التى هى أساس دين الهنود والصينيين والآشوريين والبابليين والمصريين والأوربيين القدماء ، فأتوا بأساس الأديان الصنمية ، ومزجوه بتلك التعاليم والوصايا ، حتى صار الدين الطاهر النقى الذى هو دين رسل الله الصادقين الأمناء ديناً صنمياً لا فرق بينه وبين الأديان الصنمية إلا ما فيه من الغموض والخفاء والحيرة المفسدة للعقول . اللهم رحماك بالخلق ، أنت سبحانك أظهرت آية للخلق بقدرتك ، مجملة بأسرار حكمتك ، يهلك فيها أكثر بنى الإنسان .

بيان العقائد المهلكة :

قال قوم : إنه ابن زنا . وهو رسول الله وعبد الله وكلمة الله وروح منه فأهلكوا أنفسهم . واختلف الآخرون فمنهم من قال : هو الله فأهلكوا أنفسهم . ومنهم من قال : هو ابن الله فأهلكوا أنفسهم . ومنهم من قال : الثلاثة هو الإله الواحد فأهلكوا أنفسهم. فسبحانك ، شمس التوحيد مشرقة فى أفق صحو ، وآيات التوحيد ناطقة بلسان فصيح ، إنك سبحانك أحد صمد لم تلد ولم يكن لك كفواً أحد ما الذى دعاك أيها الإنسان أن تنزل عن مقامك العلى إلى أسفل سافلين رتبة الجمادات ، أنت لا تقبل فى فمك إلا ما استحسنت عيناك ، وقبله لمس أصابعك وألفه ذوقك مما لا يضرك ولا ينفعك من جرعة ماء أو قطعة خبز ، فكيف تقبل أيها الإنسان العاقل ما يهلكك راضياً به متعصباً له مما لم يعترف به عقلك ولم يتمثله خيالك ؟ ! إن قوة حسك التى تدفع عنك ما لا لذة فيه مما لا يضر دلت دلالة صريحة أنك لست إنساناً لأنك لو كنت إنسانا تعقل لدفعت ما يهلكك عنك من العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة والأوهام المضلة بقوة عقلك ، كما دفعت مالا تتلذذ به بقوة حسك .

دخل الدين النصرانى أوربا بصورته الممزوجة بالصنمية ، فقبلته أوربا قبول الظمآن

للماء القراح ، والمريض للدواء الدافع للمرض ، لأنه صورة ما كانوا عليه من التثليث ، وبدلا من أن يكون مثاله حجراً صنع بأيديهم صار مظهره إنساناً حملت به بنت عذراء صدِّيقة بلا أب ، فكان أقرب إلى تلك الأوهام الكاسدة ، وأقرب إلى تلك العقول الضئيلة ، وألصق بتلك النفوس الخبيثة مما كانت عليه .

بم يفتخر بنو الأصفر وعلومهم فنون تدعو إليها الفطرة ؟ ! :

عجباً عجباً !! أمة تنادى بأنها أسست مجدها على العلم الحقيقى ، وأنها شيدت سعادتها على الحكمة العالية ويضرب صغيرهم صدره مفتخراً على الشرق ذاماً له ، مقبحاً لعادات أهله وأديانهم وأخلاقهم ، ولو نظر بعين الفكرة ، وصغى بأذن العبرة ، لرأى أن الشرق أولد ولداً صار إله أوربا ، وكفى الشرق فخراً أنه أولد ولداً صار معبوداً لأوربا وغيرها من المدعين العلم والمعرفة .

سبحانك اللهم وبحمدك ، ما هى العلوم التى يدعونها ؟ أعلوم تشييد المساكن وقد سبقهم النحل فيها بما لا طاقة لهم عليه ؟ أم علوم اختراع معدات لجلب النافع للإنسان ودفع الضار عنه ؟ سبحان الله ! وقد سبقهم العنكبوت وغيره من الحيوانات المحتالة ، ولم تكن تلك المخترعات إلا تحسيناً وتكميلا لما اخترعه الإنسان منذ الخلقة ، فإن الرقى آخذ ينمو فى النوع الإنسانى منذ آدم . أم تلك العلوم هى اختراع آلات الحطمة وعدد النقم على بنى الإنسان ؟ أم تلك العلوم التفنن فى المأكل والملبس والمشرب والمنكح ؟ سبحان الله !! هذه العلوم هى العلوم التى يفتخر بها بنو الأصفر وليست هذه علوم ، ولكنها فنون تدعو إليها الفطرة فى كل حى ، فما من حيوان من الحيوانات البهيمية إلا وقد ألهمه الله ما به يتفنن فى دفع المضرة عنه وجلب المنفعة له ، بأدوار لو انكشفت للإنسان لتحقق عجزه عن القيام بها . إنما العلم هو الذى يجمل الإنسان بالعقيدة الحقة والأخلاق الطاهرة ، والمعاملة الحسنة والعبادة الخالصة لذات الله . إنما العلم حقيقة ماتنتقش به حقيقة المعلوم فى النفس حتى تتمثل كمالاته وتستحضر جلاله ، وتتحقق أنه لابد لها من الرجوع إليه والحضور لديه ، والوقوف بين يديه سبحانه وتعالى ، ثم إما إلى نعيم أبدى لا يزول ، أو شقاء سرمدى لا يحول . فما أدى إلى كشف تلك الحقائق هو العلم حقاً ، وما أخفى تلك الحقائق وشغل النفس عن تكملها بكمالاتها وسخرها للجسم الحيوانى فقامت خادمة لحظوظه وملاذه ، فليس ذلك بعلم وإنما هو جهل وضلال .

ما الذى اكتسبته أوربا بعلومها ؟ هل شعرت بأن مبدع الكائنات لم يلد ولم يولد ؟ أو أحسّت بأن خالق الخلق هو الذى صنع جميع خلقه ويحب صنعته ويحب لها الخير والرحمة ، فقاموا رحماء بخلق الله وسووا بين عباد الله ، ورحموا بنى الإنسان من تلك المقذوفات الجهنمية ، وتلك المهاوى الدموية ؟ إذاً أين هو العلم وأين نتائجه ؟ إنما هو علم الحيوان : فمخلب وناب لسبع ، وتقوية على نكاح لخنزير وديك ، وجرأة على سلب الأموال والحرص عليها كالنمل ، وتلذذ بسفك الدماء كالنمر .

هذه هى علوم بنى الأصفر ، اللهم رحماك بخلقك .

سر تأليفهم الجمعيات للرفق بالحيوانات وعتق الرقيق :

يقومون داعين إلى الدين النصرانى مقبحين الدين الإسلامى ، ويؤلفون الجمعيات للرحمة بالحيوانات ، ويخترعون آلات العذاب لأخيهم الإنسان . عجباً أيها الراحم للحمار عند صاحبه الحريص عليه ، وللبقرة عند صاحبها الشفوق عليها . أحقاً ما تدعى ؟ !! أم تلك أوهام تريد بها أن تشعر قلوب أهل الشرق بأنك رحيم ؟ نعم قد شعرت القلوب لولا دخان هذا البارود ، وشظيات تلك المقذوفات ، ورعد هذه المدافع ، فكأنك بعملك هذا تظهر الرحمة وتخفى العذاب ، كما أظهرت الرحمة فى عتق الرقيق وعمل التشديد .

لم هذا التشديد فى بلاد الشرق ؟ ! والشرق له دين يدين به وشرع يعامل به ، وهو فى غنى عن رحمتكم به . هلا انبثت رحمتكم التى تدعونها على سكان أمريكا الأصليين الذين كادوا أن لا يبقى منهم أحد شبعان البطن ، مستريح الجسم ، مستور العورة والبلاد بلادهم ، والأرض أرضهم ، إنما هى ابتسامة سبع كاسر ، ورحمة عدو جبار . وهل لم يبق من أنواع الرحمة التى ترحمون بها الشرق إلا الدعوة إلى الدين النصرانى ؟ متى كنتم دعاة للنصرانية ؟ المسيح شرقى يهودى وتلاميذه شرقيون يهود ، وهم الذين قاموا يدعون ، فأنتم دعاكم غيركم . وقد ظهر الإسلام بعد المسيحية ، وقام دعاة الإسلام رائدهم العقل ، وقائدهم البرهان ، وإمامهم الرحمة الحقيقية بكل بنى الإنسان . فاعتنق عقلاء الأمم المتمدّنة الدين الإسلامى وخضع علماؤهم لأحكامه ، ومن ذلك علماء الأمم المتمدّنة من أوربا . فإن المسلمين فتحوا الأندلس والقسطنطينية وهى عاصمة المملكة ، وبها العلماء والحكماء ، فسارعوا إلى اعتناق الدين حباً فيه ورغبة . وبقى على النصرانية

فى أوربا أهل الجهالة فيها الذين لا عقل لهم يعقلون البرهان ، ولا فكر لهم يفكرون فى آيات الخالق البديع الظاهرة للأبصار والبصائر .

إن كانت دعوتك إلى الدين النصرانى لاعتقادك أنه حق فادع إليه من طريق البرهان ، لا من طريق ذم غيره ، وبسبيل العقل ، لا بعمل القهر .

ما الذى ينكره دعاة النصرانية وكل ماهم عليه منكر ؟ :

ما الذى ينكره دعاة النصرانية وكل ماهم عليه منكر ؟ أينكرون أن أصل الإسلام تنزيه الخالق المبدع عن الحلول والولد والوالد وعلوه سبحانه عن الاحتياج إلى المكان ؟ أو ينكرون عليه أن أصله الثانى أن خالق الكائنات قادر لا يعجزه شيء لا يحتاج فى خلاص عبد من عبيده ارتكب خطيئة إلى صلب ابنه الوحيد ؟ بل لو أن أهل السموات والأرض جميعاً كفروا به سبحانه وغفر لهم لما احتاج إلى شيء وإنما هى كلمة : غفرتُ لكم ، ولا يبالى سبحانه .

أينكرون عليه أن الرسول ﷺ أنزل الله عليه فى القرآن : ﴿ **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا** ﴾[1] وقال : ﴿ **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾[2] وأصل العقيدة الإسلامية الشهادة بأن محمداً ﷺ عبده ورسوله :ينكرون على الإسلام الأخلاق الفاضلة التى أُخذتْ من الآية القرآنية الجامعة قوله تعالى : ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ** ﴾[3] . ينكرون على الاسلام أنه ينزه الجناب الإلهى عن أن يقدس عبداً من عباده يجعله يحل ويحرم بل كل عباده سواء لا فرق بين هاشمى وزنجى إلا بالتقوى . ينكرون على الدين الإسلامى أنه جاء بالعدل الصحيح والمساواة الكاملة . ينكرون على الدين الإسلامى أنه لم يأت بالرهبانية وترك العمل للدنيا مرة واحدة وترك التجارة والصناعة والزراعة ، وأنه إنما جاء بالحث على العمل للدنيا حثاً حقيقياً ، وتعدد الزوجات ليكثر نسل بنى الإنسان ، وجعل الجزاء عند الله تعالى على إتقان العمل وإحسانه . ينكرون على الإسلام أنه وضع الحدود لمرتكب الجرائم والمعاصى ولم يجعل أحداً يغفر الذنوب إلا الله تعالى ، وجعل الله سبحانه الإنسان كالإنسان لا فرق بين

(١) سورة الأعراف آية ١٨٨ .
(٢) سورة الكهف آية ١١٠ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

الإنسان والإنسان ، ولو بلغ من العلم منتهاه ، ومن التقوى غايتها ، فهو عبد مسكين لا ينفع نفسه ولا يضرها . ينكرون على الإسلام أمره بالرحمة وحسن الظن حتى بغير المسلمين ، والتجمل بالفضائل حتى مع غير المسلمين . ينكرون على الإسلام أنه حظر — حتى على التقى الورع الزاهد — أن يخلو بامرأة أجنبية أو أن يعترف له مذنب بذنب إلا إذا توجه إلى الإمام المنفذ للأحكام واعترف له ليقيم عليه الحد . ما الذى ينكرونه على الإسلام وفضائل الإسلام لا تحصيها بطون الدفاتر ، وكمالات الإسلام لا تحصيها أقلام الكتاب ؟ وإنما هى مقابلة : بين حق وباطل ، وفضائل ورذائل ، ونور وظلمة . اللهم ألهم الإنسان رشده وبين له سبل الخير . ينكرون على الإسلام بعض أمور ليست من الإسلام ، لا دخل لها فى الدين ولا دخل للدين فيها ، وسأوردها وإن كنت لا أشك أنها لا تحتاج إلى بيان مثلى لظهور بطلان ما يفهمه منها الجاهل ، وأنوارها كالشمس فى رابعة النهار .

أيها المسلم لا تظن أن هؤلاء القوم بحثوا فى أصول الدينين حتى ظهر لهم الكامل والأكمل أو الراجح والأرجح أو الباطل والحق ، لا وحقك . إنما هى حصون سياسية ، ودروع نسجت على الخبث ، ليس المراد بها أن يعتنق غير النصرانى النصرانية ، وإلا لو كان ذلك لا نمحت تلك الجمعيات من على وجه الأرض ، لأن تلك الجمعيات أسست لها قرون طويلة ومحكمة التفتيش شاهد عدل ، وقد اشتدت وطأتها فى تلك السنين الأخيرة حتى صار يبذل لها قريباً من مائة مليون جنيه من أوربا وأمريكا ، ولم يسمع أن مسلماً تنصر ، ولا أن عبداً زنجياً تنصر ، ولا أن عبداً من هنود أمريكا تنصر ، فلو كان المراد التنصر ولم تنتج تلك الجمعيات النتيجة المطلوبة لأبطلها القائمون بها ، ولكن المراد بها نسيان كمالات الدين الإسلامى ، وهجران فضائله العالية التى بتركها يصير المجتمع الإسلامى لا رأس له ولا قلب فيه . فإن العرب الجاهلية الأذلاء الجائعى البطون العراة الظهور المتفرقى الكلمة الجبارين ، كيف سادوا وملكوا الأرض شرقاً وغرباً ، وأسسوا المدنية الفاضلة على أكمل أسس ، لم يكن ذلك إلا بالإسلام . نعم ولم يكن قبل الإسلام مدينة فاضلة بمعنى الكلمة لا ولا فى عصر رسل الله السابقين ، فإن شاهد الحق لدينا أقاصيص التوراة وما جاء فى الكتب المقدسة من الحوادث المهمة . أى مدينة من المدن القديمة كانت مؤسسة على الفضائل الكاملة ؟ الأمر جلى كالشمس فى السماء الصحو ، وإنما صار المجتمع الإنسانى مجتمعاً فاضلا بعد الإسلام ، لا قبل الإسلام. كان الحق للسيف والسوط والقوة قبل الإسلام ، فما ظهر الإسلام إلا وظهرت الفضائل الكاملة بأجلى

مظاهرها والمساواة الحقيقية بأجلى معانيها . لا تجعل أعمال بعض أهل الجهالة من المسلمين حجة على الإسلام ، وإنما هى وصايا محفوظة لم تغيرها السنون والدهور ، ولم يحرفها أهل المطامع والجهالة والغرور ، لأنها تنزيل من حكيم حميد .

والتعاليم المحمدية لا تزال فى كنوز القلوب وبطون الأوراق بغير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، وإنما المسلم حقاً من عمل بتلك الوصايا والتعاليم لا من قال أنا مسلم وخالف تلك الحقائق ، وأنا إنما أتكلم فى كمالات الإسلام لا فى المسلمين .

أقول : صار المجتمع الإنسانى جميعه كمجتمع فاضل ، لأن التعاليم السماوية والوصايا النبوية قام لنشرها بين العالم بأجمعه، حكماء حلماء علماء رحماء أتقياء، قصدوا محو الضلال وإظهار الهدى ، وسحق الباطل وإظهار الحق ، يبغضون أنفسهم إن مالت عن الحق ، ويقتدون بأعدى عدوهم إن اتبع الحق ،الحق مقصودهم يخضعون له أين ظهر وكيف وجد ، والباطل عدوهم يدفعونه أين ظهر وكيف وجد ، ولو ظهر على يد أب أو أخ أو ابن . يمد المسلم يده للأمير ليقطعها قائلا له : اقطعها لأنها سرقت ، ويحفر الحفرة ويجمع الأحجار وينادى إخوته المؤمنين هلمّوا ارجمونى فإنى زينت محصناً ، ويمر الرجل فى وسط الأسواق فى أيام الجهاد والجواهر منثورة والحوانيت مفتحة وليس معه أحد من الخلق ، فيمر وهو رابط الحجر على بطنه عارى الجسد لا يخطر على قلبه أن يمد يده ليتناول شيئاً منها ، فيقول له النصرانى أو اليهودى أو المجوسى : هذه الأموال مباحة لك فلم لا تتناول منها ؟ فيقول : نهانى كتاب محمد ﷺ وهى حق لى ولإخوتى المؤمنين .

تلك الفضائل والكمالات الإسلامية تعدت من أمة أعزها الله ورفعها ومكن لها فى الأرض بالحق إلى الأمم الأخرى ، والناس على دين ملوكهم . فانتشرت تلك الفضائل فى كل الأمم ، واستيقظت القلوب من نوم الغفلة ، والعقول من رقدة الجهالة .

أخذ القانون الرومانى من أحكام الإسلام :

لعل القارىء يعجب إذا قلت له :إن القوانين الرومانية مأخوذة من أحكام الإسلام ، ولكن لِمَ لَمْ تظهر تلك الحقيقة حتى ينبئنا عنها التاريخ ونراهم يسمونه القانون الرومانى ؟ أقول لك يا أخى : لا تعجب ، فإن الرومان ترجموا تلك القوانين من كتب مذهب الإمام مالك ، ولما خافوا أن تأبى الأمة الرومانية قبوله قالوا إنه قانون قديم للرومان فقبله القوم .

حالة المدينة التى كان عليها الناس قبل الإسلام

أيها الإنسان : متى كانت المساواة بين بنى الإنسان ؟ أفى العصر الذى كان الملوك أبناء السماء ؟ أم فى العصر الذى كان البطرك والبابا يبيع الجنة ويبيع المغفرة ، ويحل ويحرم ولا يزالان ؟ فى أى عصر كان الإنسان أخا الإنسان ؟ وهؤلاء اليهود يرون سبط الأنبياء وسبط الملوك وسبط الفعلة ، بحيث أن كل سبط له منزلة تناسبه من التقديس أو التعظيم أو الاحتقار . وهذا الدين النصرانى ، ترى أن القسَّ يكون جاهلا وجسمه كجسم الفيل ، يأكل ألذ المآكل ويشرب أعتق الخمور ويلبس أجمل الملابس ، ثم تراه فى عين قومه معصوما عن النقائص منزهاً عن الهفوات ، تختلى معه الفتاة الجميلة الرائعة الجمال فيضع عصاه على باب الحجرة ، فلا يراها زوجها أو أبوها أو أخوها إلا انحنى وانصرف مسرعاً ، فيجلس مع الفتاة فتقول إن فلاناً قبلنى وفلاناً ضمنى وفلاناً غمزنى وفلاناً خدعنى ولاعبنى حتى مالت إليه نفسى وفعل كذا وكذا صريحاً ، فيمد يده عليها فيرسم على بطنها الصليب ، وعلى ظهرها وعلى فخذيها يباركها ، لأنه ليس من بنى الإنسان ولا على صورة الإنسان .

وعجباً لتلك العقول لا تسأل عن سر تلك الخلوة !! ولكن سل عن العقول الناقصة والنفوس الدنيئة ، كيف صبغت الدين الطاهر بتلك الصبغة الدنيئة التى لا يرضى بها الديك وهو متصرف فى مائة دجاجة أن يجعل دجاجة منها تنظر إلى ديك آخر : فسبحان من جعل شرف الديكة فوق شرف بعض بنى الإنسان . هذه حالة المدنية التى كان عليها بنو الإنسان قبل الإسلام ولا يزالون عليها مع هذا النور المشرق ، لا لأن الذى هم عليه الحق وإنما هو ضلال وتعصب للآباء وخوف من ذهاب السيادة والملك من أيدى الأحبار والرهبان . مكثت تلك الفضائل قائمة حية حتى ترك المسلمون العمل بوصايا ربهم وتعاليم نبيهم فتفرقت كلمتهم وضعفت قوتهم ، وفى أثناء ذلك هب أعداء الفضائل وخصماء الحق ممن أبقاهم الغرور والطمع على ما هم عليه ، فسلطهم الله على المسلمين لمخالفتهم دينهم ، وجاسوا خلال ديارهم ، ولم يكفهم ما عملوا حتى قاموا يقبحون الفضائل ، ويذمون الكمالات ، وياليتهم بحثوا بعقولهم حتى يظهر لهم الحق من الباطل .

الرد على ما ينكره أهل الجهالة من الفضائل الإسلامية :

ما الذى يرمون به الإسلام ؟ أأوردوا برهاناً على فساد عقيدته ؟ لا والله ، وإنهم ليعتقدون أنها العقيدة الحقة ، مع أنهم أعداء . أم ظهر لهم فساد فى أحكامه ؟ لا والله ،

وإنهم ليعملون بأحكامه ويسيرون على سيرة الأئمة الفاتحين من المسلمين . أو أقاموا الدليل على أن الإسلام لم يأت بالأخلاق الفاضلة ؟ لا ، ولم يعتنق الدين الإسلامى جميع من اعتنقه إلا حباً فى فضائل الأخلاق التى يأمر بها ، وتصديقاً للعقيدة الحقة التى يدين بها . فما الذى ينكرونه عليه إذاً إذا كانوا لم ينكروا على عقيدة الإسلام ؟ وكل عقيدة غير عقيدة الإسلام منكرة عقلا وحساً ، لا يقبلها عقل عاقل ولو طفلا .

الفضيلة الأولى التى أنكروها :

أنكروا على الإسلام أموراً خارجة عن نواميس الدين بعيدة عن أصوله،يقولون : إن زوجة النبى ﷺ وهى فى سفر خرجت لتقضى حاجة فى مكان البراز ليلا ، لأن قضاء الحاجة لا يتحمل الصبر عليه الإنسان ، وأبعدت عن الناس بحاجتها حياء . فقام الجيش ، فلما أقبلت جلست فى مكانها الأول حزينة باكية مسلمة أمرها لله حتى جاء الراكب الذى يكون بعيداً عن الركب ولا يقوم إلا بعد قيامه ليتمكن من حمل المتأخر وحفظ ما يضيع منه ، فلما أقبل وجد امرأة نائمة ، وكان من أتقياء الصحابة رضوان الله عليه ، فنزل من على ناقته ، ثم وقف وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت عند استرجاعه وركبت على الناقة ، وانصرفت بها وهو يعلم أنها زوجة رسول الله ﷺ ، فلما أن قدموا المدينة قام يهود المدينة فقالوا تأخرت زوجة نبيهم .

وما الذى كان لو تأخرت : إن الرجل ليرسل زوجته وأخته مع رجل آخر صديقه فيسافر بها اليومين والثلاثة والأربعة لمجرد الصداقة . واليهود معذورون إذا قالوا إن عيسى ابن زنا ، وإذا رموا أمه بالفسوق ، لأنها بنت بكر راهبة حملت وولدت ، ورؤى ابنها ، الأمر الذى لا يرتاب فيه عاقل حتى برأها الله تعالى ، ولكن ما وجه الشبهة فى هذا ؟ سبحان الله ! أهذه من الأمور التى تنقص مقام الأنبياء ! إن كان هذا مما ينقص مقام الأنبياء فمسألة المسيح ليست شبهة ولكنها حقائق . فمن كان يصدق أن بنتاً بكراً تحمل وتلد ويقول إنها بريئة طاهرة .

فكيف ينكر أن زوجة نبى كريم تكون فى سفر وتمنعها الحاجة ثم يأتى حارس الركب بها محمولة على ناقته وهو من أكرم الصحابة وأعلمهم بمقام رسول الله ﷺ ويظن به السوء من له عقل ؟ أخرج الخشبة من عينيك ، فإن عينى أخيك ليس فيها قذى ، هذا أكبر ما يرمون به هذا النبى الكريم . وقد علمت أن أسفار التوراة دالة على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام يحفظ الله أهلهم ويبعد عنهم من ليس منهم . إن كانت مريم التى حملت

وولدت برأها الرب ؛ فتلك السيدة ـــ التى لا يخطر على قلب عاقل خاطر بسوء فى حادثتها هذه إلا من لعنهم الله من اليهود والمنافقين ، وممن قام يظن السوء فى أمهات المؤمنين ـــ قد حفظ الله شرفها ودافع عنها سبحانه فى محكم القرآن بصريح العبارة فمن أنكر براءة الله لأم المؤمنين وهى البعيدة عن الشبهة المصونة عن الريبة قال إن المسيح ابن زنا . ولعل من عنده قابلية للفهم أن يتوب إلى الله ويرجع ، وإلا فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين .

الفضيلة الثانية التى أنكروها :

لا تعجب أيها المسلم إذا رأيت الخفاش (أى الوطواط) يسكن نهاراً ويتعيش ليلا ، فإن الله خلق خلقاً يبغضون النور ويحبون الظلمة ، يسارعون فى الفتنة والضلالة والغواية وهم يعلمون أنهم على الباطل عناداً وعلواً بغير الحق ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، جهلا بالحق وعمى عن الهدى . وكيف لا ؟ وقد صارت الفضائل العمرانية والخيرات الاجتماعية والمنافع العامة للمجتمع الإنسانى رذائل وظلمات فى أعين من هم أعمى من الخفاش بصراً ، وكيف لا وهم ينكرون على رسول الله ﷺ الذى بشر به المسيح فى أناجيله وموسى فى توراته وإبراهيم فى أسفاره وداود فى مزاميره ، وذكر اسمه فى النبوات بأوصافه .

ما الذى ينكرونه عليه ﷺ ؟ ينكرون عليه ﷺ تزويجه بالسيدة زينب بنت جحش ، ولو أنهم قرأوا آية القرآن وكانت لهم عقول تعقل حِكم هذه الحادثة لتخلوا عن دينهم ، واعتنقوا الدين الإسلامى ، لكمال ما يظهر لهم من حِكم تلك الحادثة ، ولكن صدق الله العظيم فى قوله سبحانه : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾[1] . يقولون إن النبى ﷺ عشق زينب حتى أخذت من قلبه مأخذاً ـــ تنزه قلبه ﷺ عن أن يشتغل بغير ربه ـــ حتى طلقها زيد فتزوجها ﷺ :

سبحان الله ، لو كنت أيها المنكر راغباً فى البيان لبين لك طفل صغير من أطفال المسلمين أسرار تلك الحادثة ، أو كنت باحثاً عن الحق لانجلت لك الحقيقة بمجرد سماع آيات القرآن الشريف .أكتب لك الآية ثم أشرح لك ما فيها صريحاً من الحكم ومما يؤخذ

(١) سورة الأعراف ١٧٩ .

منها بطريق الالتزام أو التضمن من الحكم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴾[1] .

هذه الآية الشريفة ليس على أنوارها العلية ستائر تحجبها عن العقل ولا حجب تمنع أشعتهما عن أن تنفذ إلى القلب . ولكن لعن الله الضلال وقبح الله العناد . أشرح ما يمكن أن أبينه لعدو منتقد ، وأخفى من أسرار الحكمة العالية ، وأنوار الأسرار الغالية ، مالا يمكن أن أبيحه إلا لمسلم كامل .

أنت تعلم أن زيداً مملوك من موالى رسول الله ﷺ ، وأن زينب بنت جحش من أشرف بيوتات قريش ، وقد بلغت من المجد والشرف أن لها نسباً مع رسول الله ﷺ ، فزوجها زيداً ليمحى ظلمات الجهالة عن نفوس المسلمين ، فيعلموا حق العلم أن العبد المملوك فى مستوى واحد مع الهاشمى المالك ، وأنه كفء لأشرف امرأة من قريش حتى يكون الفخر بالتقوى لا بالأنساب ، وبالنفوس الزكية الطاهرة لا بالعصبية والأموال .

لو أنك أيها المنتقد أدركت سر زواج زيد لزينب وما أنتجه فى المجتمع الإسلامى من المساواة بين أفراد المسلمين ، حتى صار العبد المسلم مع الشريف القرشى المسلم ، لذقت من رحيق الكمالات الإسلامية شراباً طهوراً ، يجعل قلبك يدرك حِكم الأحكام الإسلامية ، فتتنبه من نومة الغفلة ورقدة الجهالة ، ويوحى إليك أن المراد النجاة بأى دين وعلى أى طريق ، وباتباع أى نبى يكون دينه مطابقاً للعقل والحق . وليس المراد التعصب للآباء الضالين والاقتداء بالرؤساء المضلين تعصباً يبلغ بالإنسان مبلغ البغض للحق الصريح والعناد لإحياء الباطل القبيح .

هذا سر جلى من أسرار زواج زيد بزينب رضى الله عنهما ، وقال الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُم وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ﴾ إلى أن قال سبحانه : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾[2] هذه الآية تحرم على الرجل أن يتزوج زوجة ابنه الذى من صلبه ، وكان العرب قبل الإسلام ينسب الرجل الولد

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٢) سورة النساء آية ٢٣ .

لنفسه ، فيقول ابنى ، ثم ينزله منه منزلة ولد الصلب ، وأحكام الله تعالى تغاير أحكام الجاهلية . ولما كان رسل الله صلواته وسلامه عليهم يجب أن يبدءوا بتنفيذ الأحكام على أنفسهم قبل كل أحد ليكونوا قدوة وأئمة للأمة ويكون للأمة أسوة حسنة فيهم .

أمر الله تعالى رسوله أن يأمر زيداً بطلاق زينب وأن يتزوجها لنفسه ليهدم أحكام الجاهلية . وكانت عوائد العرب مستحكمة فى أنفسهم استحكاماً يجعلهم ينقصون من يخالف العادة ، ورسول الله ﷺ حريص على تأليفهم كما وصفه الله ، فشق هذا الأمر عليه ﷺ خوفاً على قلوب الناس من الانزعاج وعلى نفوسهم من الرعونات والنزوع إلى مالا يحمد ، وابتهل إلى الله تعالى أن يجعل هذا الحكم علماً لا عملا حتى كان ﷺ كلما وقع نظره على زينب وعلم الآية التى يأمره الله بتنفيذها على نفسه فى نفسه ليمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته ، يصعب عليه الأمر خوفاً على الخلق ، ويخشى أن يكون هذا الأمر مفسداً لعقائد بعض الصحابة . وكانت زينب كلما نظرت إلى زيد عزَّت عليها نفسها أن تكون زوجاً لمولى ، وهى الشريفة النسب الكبيرة النفس . وكان زيد يلتمس من رسول الله ﷺ أن يأمره بطلاقها تخلصاً من أذيتها له ، ورسول الله ﷺ يمنعه حتى طلقها زيد رضى الله عنه ، ورسول الله ﷺ يخشى على قلوب الناس وعقائدهم ، حتى عاتبه الله عتاباً شديداً بقوله تعالى : ﴿ **وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ** ﴾[1] ما أمرك الله به من زواج زينب بعد طلاقها من زيد لمحو تلك الضلالة التى كان عليها أهل الجاهلية من أن الرجل إذا تبنى ولداً لا يتزوج زوجة الولد ولا الولد يتزوج زوجة مَنْ انتسب إليه وهى أحكام جاهلية لم ينزل الله بها من سلطان .

وهذا الأمر حكم من أحكام الله تعالى لابد أن يبديه الله فى ذات رسوله ﷺ ليتقرر علماً وعملا ، فلا يشك مسلم بعد ذلك فى صريحة ، ثم بينه صريحاً فقال سبحانه : ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً** ﴾[2] أى : طلقها ﴿ **زَوَّجْنٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينْ حَرَجُ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً** ﴾[3] . أى : زوجناك زينب بنت جحش مطلقة زيد الذى تبنيته ليرتفع الحرج عن المؤمنين ، ويجوز لكل مؤمن أن

(١)﴿(٢)﴾(٣) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

يتزوج زوجة من يتبناه إذا طلقت منه وهو حكم الله سبحانه وتعالى ، وإنما التحريم بالنسب الحقيقى لا بالانتساب القولى .

وهذه سنة الله تعالى فى رسله ، فإنه سبحانه إذا أمر بأمر وجب على الرسول أن يسارع إلى تنفيذه فى نفسه عملا أو تركا . انظر إلى قوله ﷺ : « كُلُّ دَمٍ فى الجاهلية تحت قدمى هذا وأول دمٍ أضعه دمَ الحارثِ بن عبد المطَّلِب ، وكل رباً فى الجاهلية تحت قدمى هذا وأولُ رباً أضعه رِبَا العباس بْنِ عبد الْمُطَّلِب » فبدأ بتنفيذ أحكام الله فى نفسه بنفسه ليقرر الأحكام علماً وعملا ، ثم نفذ أحكام الله فى أقرب الناس له لأن الحارث بن عبد المطلب عمه والعباس بن عبد المطلب عمه .

إذا سلمت أيها المعاند وفقهت تلك الحكم الجليلة يمكن أن تباح لك من أسرار الحكم التى تنتقش كمالاتها فى نفسك وتشرق أنوارها على قلبك ، فتكون بها رجلا كاملا مؤهلا لدخول ملكوت الرب سبحانه ، رحمة بك أيها المعاند لأنك إنسان مثلى قادك هواك وحظك إلى الهاوية ، والأخوة الإنسانية تقضى علىّ أن أسعى فى نجاتك منها بقدر استطاعتى بالموعظة الحسنة والرفق ، لأنى أدعوك إلى الحق وإلى السعادة ، لا كما تفعل أنت من فحشك وقذفك وجعل الحسن قبيحاً ، وأنت تدعو إلى الضلال بالجهل عن الحق ، فعساك أيها الإنسان أن تحفظ رتبتك من الوجود ، وتعلم أن التعصب للآباء والغرور بالملك والسيادة من مهاوى الهلاك عاجلا وآجلا . وكفى بالإنسان تعساً أن يترك الحق الجلى ويسعى فى إخفائه ، وينصر الباطل الوبىء ويسعى فى إظهاره .

وأكتفى بما أشرت إليه فى معنى الآية لأن مريد الحق يميل إليه متى ظهرت بوادره ، ومريد الباطل يفر من الحق ولو لمسه بيديه ، هذه هى الفضيلة الثانية التى ينكرها الجهلاء بالحق المعاندون له .

الفضيلة الثالثة التى أنكروها :

لا شك أن من لا يشهد الشمس ضحوة أشد عمى من كل أعمى ، وكذلك من ينكر الفضائل الكاملة يكون أضل الخلق أجمعين . ينكرون على الإسلام تعدد الزوجات ، وإن التلميذ المبتدىء يعلم حق العلم أن الدين الذى يدين به جميع الناس يجب أن يكـون جـامعاً لما لابد للعمران منه ، وخصوصاً ما يحفظ النوع الإنسـانى من الفنـاء .

أنت أيها المنتقد تجهل سر الحكمة فى إباحة تعدد الزوجات ، كما تجهل أسرار الحكمة

فى المجتمع الإنسانى ، وتجهل الوسائط التى بها بقاء هذا النوع وقوة التعاضد والتعاون مما لولاه لفسد العمران الإنسانى .

الأساس الأول :

من البديهى أن الإنسان لا يمكنه أن يقوم لنفسه بكل حاجياته ، وأن الإنسان معرض لأمراض كثيرة ، وأكثر الأمراض تكون فى الرحم ، وأن أمراض الأخلاق أضر من أمراض الأبدان ، وأن الوالدين قد يقهران البنت أو الولد على من لا تميل إليه أو من لا يميل إليها . وأن افتتاح العشرة لا تظهر فى مبدئها حقيقية الأخلاق . لأن الأخلاق السيئة كامنة فى النفس يخفيها الإنسان تكلفاً عند الضعف كما أن الأمراض يخفيها الإنسان تكلفاً بالتجمل . ولو أن الحكم الإلهى يوجب أن الإنسان إذا تزوج امرأة لا يفارقها إلا بالموت ولا تفارقه هى إلا بالموت ، لكان ذلك سبباً فى البؤس وتعاسة الحياة وتؤول بخراب العمران .

تلك الأساسات التى ذكرتها لك تنتج أن الرجل إذا تزوج امرأة مريضة برحمها عاش معها معذباً مما يتحمله من مرضها محروماً من الذرية . وإذا تزوجت المرأة رجلا عقيماً أو عنيناً لا يمكنها أن تحفظ نفسها ، أو تعيش عيشة تعيسة فى مرض وحزن وهم . وبحقك أيها المنتقد لو أن كل إنسان تزوج واحدة وكثر النساء فى العالم ولم يجدن لهن من يتزوجهن أيحفظن دينهن أو يحافظن على شرفهن ؟ .

لم يكن السر فى تعدد الزوجات إلا حفظ النسل أولا بأنه إذا تزوج الرجل امرأة وتحقق له طباً أنها لا تلد ، فالدين لا يمنعه أن يتزوج أخرى وله أن يبقى الأولى معه وفاء أو يطلقها . وقد اشترط الدين لتعدد الزوجات شروطاً : منها العدل فى مساواتهن ،والوسعة التى بها يقوم بنفقتهن وتربية أولاده منهن ، وحسن المعاشرة التى تطيب بها حياتها معه . قال الله تعالى : ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ** ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء آية ٣ .
(٢) سورة الطلاق آية ٢ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٣٧

أمرنا الله تعالى أن لا نضيق على المرأة بالعضل بأن نضايقهن ليتركن حقوقهن بعد الطلاق . أمرنا الله تعالى أن ننفق عليهن بعد الطلاق ، وأن نعطيهن مالهن عندنا من الصداق ، وأن تدوم النفقة حتى يتحقق عدم الحمل ، فإن كانت حبلى وجبت عليه النفقة حتى يبلغ الولد سبع سنين والبنت تسع سنين .

الأساس الثانى

الإنسان فى حاجة للتعاون ، وأكمل من يعينه أقاربه وأصحابه . فقد يتزوج الرجل من العائلة ليكون أولاده أهل شرف وعصبة ، وقد يتزوج ليكون أولاده أصحاء أقوياء البنية ، وقد يتزوج لتكون الزوجة معينة له على دينه ودنياه ، وقد يتزوج لتكون الزوجة مدبرة لمنزله مربية لأولاده ، والمعانى المعقولة التى ترجح تعدد الزوجات محسوسة راجحة . والحقيقة أن الإنسان إذا تزوج أمرأة أخرى هى كالأولى لا تتفاوت عنها لم ينصف . ولما كان الدين الإسلامى يوجب العمل والنشاط على كل مسلم ويجعل أول واجب التعليم ، كان ولا شك كلما كثر النسل انتشرت الفضائل وعمت الخيرات .

لا تعجب فأكثر أهل أوربا تلاميذ دَارْون ، وقد كادت تلك الحقيقة تكون مقررة فى أذهان نصارى الشرق ، لأن تعاليم الدين المسيحى ترغب فى العيشة الحيوانية ، وهم يعتقدون أنه ابن الله فلم يرغبهم فى العيشة الحيوانية إلا ليرجعهم إلى أصولهم . أستغفرك اللهم من حكاية أقوال من لا يعقلون ، وأعوذ بوجهك الكريم من أن أقصد الشر لأحد من بنى الإنسان . اللهم وأنت سبحانك تعلم لا غيرك أنى لا أريد إلا الخير ، فأنزل يا إلهى بيانى هذا من قلوب الذين ينتقدون علينا منزلته من قلبى من القبول واحفظنى

ولما كان الدين المسيحى أوجب على الناس ترك الدنيا وكرههم فى العمل لها فيها ، وأخبر أن الغنىّ لا يدخل الملكوت ، ولم يتزوج أمام تلاميذه ولم يأمر أحداً منهم بالزواج ، وكان يتناول طعامه من أيدى الناس بلا عمل ، كان ولا بد أن يأمر بترك الزواج مرة واحدة أو بتزويج واحدة فقط ، وإلا مات الناس جوعاً ، لأنه لم يأمر بتعليم الصناعة والحرف ولا بالزراعة ولا بالعمل مطلقاً للدنيا فيها . فكأن دين المسيح دين الكسل والبطالة والرهبانية ،وسكنى الغابات والكهوف . ولذلك ترى أن أهل أوربا لما أشرقت عليهم أنوار العلوم الإسلامية والعمل فى الدنيا ، وقام أهل الأفكار منهم وطالعوا التعاليم المسيحية التى تحتم على بنى الإنسان أن يترك الحضارة والمدنية والتمتع بنعم الله من

الائتلاف والتعاون ، حكم أن أصل الإنسان قرد ، وأنه لا بد وأن يؤمر بالرجوع إلى ما كان عليه من العيشة فى الكهوف والغابات وترك استكشاف أسرار الكائنات وخواصها للانتفاع بها ، وإلا ما الذى دعا دِرْون أن يقول : إن أصل الإنسان قرد ، ويقوم مبرهناً بالبراهين التى تنبىء عن فساد قواه العقلية واختلال تركيب أمزجته وضعف المجموع العصبى .

يا إلهى بحفظك من شرهم وكيدهم ومكرهم ، إن قدَّرت سبحانك عدم هدايتهم . إذ تقرر هذا الأمر ، أبين لك أيها المنكر ما يمكنك أن تفهمه من حكمة تعدد زوجات رسول الله ﷺ .

حكمة تعدد الزوجات لرسول الله ﷺ :

اعتقد معى أنه رسول لجميع الخلق ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأنه أرسله الله على فترة من الرسل بين جاهلية عمياء وأمم ظلمة ومدن فاسقة وملوك جبابرة . وهو الذى يضع الحرب كما بشر به المسيح الذى قال : ما جئت لأضع حرباً ولكنى جئت لأضع سلاماً ، والذى يأتى من بعدى يحصدهم بالسيف ، أو كقوله عليه السلام . وكان الرسل قبل رسول الله ﷺ يبعثون لأممهم فقط ، وأرسله الله تعالى للناس كافة ، فكان لابد أن يكون له ﷺ حزب قوى متماسك متحد اتحاداً بكل معنى الكلمة من أوجه الاتحاد كلها : من جهة الدين ، ومن جهة الألفة ، ومن جهة القرابة ، ومن جهة النسب . فحقق الله تلك الرابطة القوية بالدين وباللغة ، فكان يتكلم مع كل قبيلة بلغتها ، ثم أكمل الله تلك الرابطة بما أباحه له ﷺ من تعدد الزوجات بوسعة ، فتزوج ابنة أبى بكر الصديق وابنة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وزينب بنت جحش للحكمة التى سبقت ،وابنة أبى سفيان ،وغيرهن ممن كن سبباً فى تقوية الروابط الدينية بسبب النسب واتصاله . ومن نظر بعين المفكر العالم الحكيم يتحقق أن تعدد الزوجات للنبى ﷺ من علامات النبوة ، وأكمل دليل على أنه خاتم الرسل وأنه المبعوث للناس كافة بشيراً ونذيراً ، وكيف يخفى على إنسان يعقل البديهى حكم هذا الحكم ؟ .

وقد مكث ﷺ راضياً بزوجة واحدة مدة عشرين سنة تقريباً وهو فى ريعان الشباب وراحة البدن وصفاء الوقت ، ولم يتزوج السيدة عائشة رضى الله عنها والسيدة حفصة وغيرهما ، إلا بعد بضع وخمسين سنة من عمره الشريف ، وهو فى أعظم أوقات العمل وأصعب آنات الصعوبة ، وهو بين جهاد بالسيف أو باليد أو باللسان ، وبين تقرير

أصول الدين وبيان فروعه ، وبين تنظيم الجيوش وتزكية النفوس ، حيث أن أنفاسه ﷺ كانت أنفس من النفائس . ومن قرأ تاريخه ﷺ بعد الهجرة يتحقق أنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يتزوج واحدة من أمهات المؤمنين بعد الهجرة لشهوة أو رغبة فى لذة ، ولم يتزوج قبل الهجرة على التحقيق إلا السيدة خديجة عليها السلام قبل البعثة ، ومكثت معه ﷺ راضياً بها وراضية به عليه الصلاة والسلام ، منذ كان عمره الشريف سبعاً وعشرين سنة إلى بضع وأربعين . فهل القائم بعظائم الأمور الذى يدعو الخلق أجمعين إلى نجاتهم بالرحمة والرأفة والحرص عليهم ، المنصب بكليته على الحق ، المجاهد بنفسه منفرداً فى سبيل الله إظهاراً لدين الله ومحواً للضلال والكفر يتلذذ بغير الحق أو يشتغل نفساً بغيره ؟ حاشا أن يخطر على قلب رسول من غير أولى العزم هذا الخاطر ، فكيف يخطر على قلب أفضل أولى العزم ؟ إنما هى أعمال لحكمة عالية هى من أكمل الجهاد فى الله سبحانه وتعالى . والعاقل يكتفى بأقل إشارة فكيف لا يكتفى بالعبارة ؟!

سيف رسول الله سيف رحمة لا سيف نقمة :

لعل المنكر يجهل ما منّ الله به على جميع الخلق من الرحمة برسول الله ﷺ ، فيقول : قام والسيف صلت أى مسلول فى يده . ونعم ، ولكنه ، سيف رحمة وحنانة ورأفة وشفقة . وإلا فالذى كان فى يده السيف للنقمة لِمَ أبقاك أيها المنكر حياً وكان من السهل عليه أن يقول كلمة صغيرة فى وصاياه تكفى أن تصبح الكرة الأرضية ليس على وجهها غير مسلم ؟ لعلك لا تسلم بحكمى هذا ، لكنى أبين لك بالبرهان الحسى أنه لم يشهر السيف إلا على الظلم ، ولم يضرب به إلا هامة الجور . انظر إلى المدن التى أسسها الإسلام والبلاد التى ملكها المسلمون ، تر النصرانى واليهودى والمسلم سواء فى كل الحقوق المدنية ، فلو كان السيف سيف النقمة لغير المسلم لما أبقى نصرانياً ولا يهودياً . أقول على وجه الأرض لأن المسلمين إذا كانوا متمسكين بالدين تمسكاً حقيقياً مكنهم الله فى الأرض بالحق تمكيناً ، حتى جعل لهم من القوة ما يمكنهم به أن يقهروا الخلق أجمعين على الإسلام أو القتل ، ولم نسمع بهذا أبدا .

وإنما كانوا يقهرون الظلمة الذين كانوا يستعبدون خلق الله من الملوك والرؤساء ، ليجعلوا عباد الله يتنعمون بنعمه سبحانه فى مستوى واحد ، ويكون لليهودى والنصرانى ما للمسلم من الحقوق كلها ، ويمتاز النصرانى واليهودى عن المسلم ، بأنه لا يكلف بحماية الثغور ، ولا بمدافعة الأعداء فى الجهاد ، ولا بحراسة المدن ليلا ، بل يكونون فى

امن وأمان ! يعملون فى أعمالهم الخاصة ، ويستريحون متى شاءوا . وكان المسلم يكلف بدفع زكاة ماله فى كل سنة والذمى يكلف بنظيرها من ماله ، وزكاة المال من المسلم لا تجعل له امتيازا وما يؤخذ من الذمىّ من المال يجعله فى رياض الأنس وحصون الأمن تسفك دماء المسلمين وهو آنس بزوجته وأولاده فرحاً مسروراً ، ويفارق المسلمون أولادهم وأهلهم وبيوتهم ، وهم كأنهم ملوك فى منازلهم ومزارعهم ومصانعهم .

هذا هو الذى سل لأجله سيف الإسلام ، فهو رحمة لا نقمة ، ونور لا ظلمة ، وحياة لا موت ، وسعادة فى الدنيا لأهل الذمة ، وسعادة فى الدنيا والآخرة لمن انكشفت له أسرار الدين ممن أسعدهم الله بالعقل .

ذكرى لمن له قلب

المثال الأول :

أنت أيها الإنسان ترى الحكيم يشق بطن المريض أمامك ، وأنت فرح بعمله ، ثم يشممه البنج أمامك حتى يصير كالميت وأنت فرح بعمله ، ثم يكويه بالنار أمامك أو بالكهرباء وأنت فرح بعمله ، وقد يقطع أصبعاً أو يداً أو رجلاً أمامك وأنت فرح بعمله . ما الذى جعلك تفرح بعمله ؟ لعل جوابك أن تقول : اعتقادى أن هذا العمل رحمة ، لأنه ألم يعقبه الشفاء من مرض ربما أهلك المريض . وتقول فى عمل القطع : قطع عضو لسلامة بقية الأعضاء ، خير من بقاء العضو الذى ربما أضر ببقائه جميع الأعضاء . فإذا كانت تلك الأعمال فى الفرد الواحد لمرض جسمانى ، فكيف بالمجتمع الإنسانى مع الأمراض الأخلاقية ؟ فإذا كان المريض يرضى أن يقطع منه عضو لحفظ بقية الأعضاء وهو إنسان واحد ، فكيف لا ترضى ، إذا قطع عضو من المجتمع الإنسانى ليحفظ بقية المجتمع ؟. أظن أنك تقول معى بعد هذا البرهان إن السيف المصلت فى يد هذا الرسول الكريم ﷺ لطف من الله ورحمة منه سبحانه ، وهو للمجتمع الإسلامى كالمشرط فى يد الطبيب الشفيق الرحيم بالنسبة للفرد بل الرحمة بالسيف أشمل ، والنفع به أكمل والخير به أعم . ولو أنك أيها الإنسان حملت أقوال الرسل عليهم الصلاة والسلام وأحوالهم على ما يليق بهم من الكمالات وما ينبغى أن نفهمه فيهم من الرحمة والشفقة وإرادة الخير الحقيقى لبنى الإنسان ، لاتضحت لنا محاسن تلك الأقوال والأعمال والأحوال ، وضوحاً يجعلنا نعشق الرسل عليهم الصلاة والسلام . ولكن جهل الإنسان بقدره وغفلته عن منزلته ونسيان الموت وما بعده جعل أكثر الناس كالبهائم الراتعة ينقدح الشك فى قلوبهم لأول عبارة يسمعونها ويتبعون كل ناعق يصيح بباطل أو بشر أو بضر . مالك أيها الإنسان لا تبحث بعقلك ولا تفكر بفكرك عما يدعوك إليه الكهان والقسس والأحبار والملوك وهم من بنى الإنسان مثلك ، ولكنك لجهلك تقدسهم وتنزههم فلو أمروك بما فيه هلاكك فى الدنيا والآخرة لسمعت وأطعت .

جاء المسيح عليه السلام لبنى إسرائيل بأوضح المعجزات وأجلى الآيات حتى حنت قلوب الناس إليه ورغبت العقول فيه ، فتحقق الأحبار والرهبان أنه لو بقى حياً يضيع ملكهم وتذهب سيادتهم ، ويزول مجدهم فى هذه الدار الدنيا فأنساهم الحق ، فقاموا ينعقون قائلين : لا نترك موسى كليم الله وتوراته وعمل آبائنا لضال ابن زنا ، فأقبل

العامة عليهم بما موّهوا عليهم به من الأباطيل فأهلكهم الله . وقام النصارى يرمون اليهود بالجهالة والظلم حتى أفنوا منهم أحد عشر سبطاً وبقى منهم سبط واحد متفرق فى أصقاع الأرض ظلماً وفجوراً . ذلك لأنهم أنكروا رسالة المسيح ، وإنما الذى أنكرها الكهان واتبعهم العامة ، مع أن العامة كانوا يحبون المسيح ويجتمعون عليه حتى نعق ناعق الخائف على زوال الملك والسيادة من الكهان بما خدع به اليهود ، فاتبعوه وكرهوا المسيح . وهكذا فعل النصارى كما فعل اليهود بالمسيح ، فإنهم لما أن بعث الله النبى العربى رسول الله المذكور فى التوراة والإنجيل ، وأقام الحجة بالمعجزة الظاهرة أنه رسول الله ، وأحبه عامة الناس كما هى سنة الله فى رسله عليهم الصلاة والسلام . قام أحبار اليهود وأعانهم كعب بن الأشرف وأبو رافع سيدا اليهود بالحجاز على إنكار نبوة هذا الرسول الكريم ، خوفاً على ضياع السيادة منهم ، كما فعلوا مع المسيح عليه السلام . ولما أن ظهرت معجزات رسول الله ﷺ وقام كثير من الرهبان يفدون على رسول الله ﷺ ليسمعوا منه ، فكان يتلو عليهم عليه الصلاة والسلام آيات القرآن فتفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق ، حتى أرسل رسول الله ﷺ كتاباً إلى قيصر بالشام فجمع البطاركة والمطارنة والقمامصة ، وجمع تجار قريش بعاصمته ، وسألهم الأسئلة المشهورة فى التاريخ ، وكان المسئول أبا سفيان الذى كان عند سؤال قيصر له أشد أعداء رسول الله ﷺ ، ولمزيد الاستفادة أذكر الحادثة بنصها :

شأن هرقل مع رسول الله ﷺ :

بسند البخارى رضى الله عنه قال : حدثنا أبو اليمان قال : أنبأنا شعيب عن الزهرى ، قال : أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بأيلياء ، فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه ، فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم به نسباً ، فقال : ادنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه . قال : فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عليه . ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سَخطة لدينه بعد آن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ؛ ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله عز وجل . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب . وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله عز وجل ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمىّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه . ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسين ؛ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون)

قال أبوسفيان : فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا ، فقلت لأصحابى حين أخرجنا : لقد أمِر أمر ابن أبى كبشة أنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام . وكان ابن الناطور صاحب أيلياء وهرقل أسقف على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم أيلياء أصبح يوماً خبيث النفس ، فقال له بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك،قال ابن الناطور : وكان هرقل حزّاء ينظر فى النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة ؟. قالوا :ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم ، واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود . فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ ، فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن ، وسأله عن العرب : فقال : هم يختتنون ،فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر . ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره فى العلم ، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ﷺ ، وأنه نبى ، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : ردوهم على ، وقال : إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل .

يظهر لنا من هذا : أن قيصر كان عالماً بأسرار الإنجيل ومتحققاً أنه مبشر برسول من أبناء إسماعيل ، وكان عالماً بالبشائر به ﷺ من التوراة ، فلما تناول كتاب رسول الله ﷺ اطمأن قلبه ، ولكن تثبت بما تقدم من الحوادث وأراد أن يكون أول الناس اتباعاً لهذا الرسول العظيم ﷺ وأن يكون سبباً لسعادة أمته ولكن رؤساء الدين أبوا عليه ذلك وهموا بقتله حرصاً على السيادة كحرص اليهود عليها عندما هموا بقتل المسيح ، فأذلهم الله ونجاه منهم ورفعه إليه . فلعن الله الطمع فيما يزول والغرور بما يفنى ، فإن أفراداً قليلين يطمعون فى السيادة فيوقعون الأمة الكثيرة العدد فى الهاوية قروناً طويلة .

المسلم يعتقد أن كل مسلك خير منه :

وليس كذلك

رؤساء الإسلام فإن كل مسلم لكل مسلم كالأخ للأخ إلا من صغرته معصية الله وأذلته مخالفة سنة رسول الله ﷺ . وإلا فكل فرد من أفراد المسلمين عظيم فى عين أخيه ، لا يرى مسلم لنفسه شرفاً على أخيه المسلم ولو رآه أخوه له فعظمه للتقوى أو للعلم . والمسلم ولو كان عالماً تقياً هاشمياً ، يرى نفسه مسيئاً احتقاراً لها ، ويعتقد أن كل مسلم خير منه ، ولو أن المسلمين أجمعوا على سيادته والاقتداء به وتعظيمه . وكم ساد فى المسلمين رجال من الموالى (المماليك) ومن الأعاجم ، حتى كان الشريف الهاشمى يقبل يد المولى تعظيما له عملا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١)

المثال الثانى :

أنت أيها الإنسان يكون أبوك أو أخوك تاجراً وتكون محتاجاً إلى شراء ما يتجر فيه فتتوجه للشراء منه ، فإذا لم يكن الثمن أقل مما عند غيره أبيت أن تشترى منه أو وجدت فى نفسك عليه ، وامتنعت من الشراء منه وهو أبوك الذى يملك نفسك ومالك ، وإنك لو اشتريت منه بأضعاف ما تشترى من غيره لكنت فاعل خير . ولكن العقل يأبى على العاقل أن يقبل إلا مافيه الخير له فى حاله ومستقبله وما يرى نفسه راضية بقبوله . فكيف يمنعك عقلك أن تشترى من والدك بأكثر مما تشترى من غيره ، والذى خسرته لوالدك شيء زهيد ؟ وترضى أن تبيع نفسك الكريمة ونور عقلك وشرفك ومجدك ومالك بالتسليم والانقياد والاقتداء برجل ذى عقيدة تقول للعقل:اقبلنى قهراً عنك ؟ وذى أعمال تقول للنفس الطاهرة الزكية:فارق هذا الجسد الإنسانى ليحل محلك نفس بهيمية لا تفكر ولا تبحث ولا تعمل لغد ؟ ثم تقول للشرف الإنسانى والغيرة : فارقا هذا الهيكل الإنسانى ، فإن من بنى الإنسان من حل فيهم الرب فجعلهم منزهين عما هو من فطرة البشر ، لأن الرب حل فى جسمهم ، فصارت قواهم الحيوانية ممزوجة بصفات الرب ، فلا ينتصب ذكر الواحد منهم ولو أدخله فى فرج امرأة ، ولا يشتهى مالا ولا طعاماً ولا لباساً ، فتسمع النفس وتطيع ويأبى العقل ، فيقهر حتى يفارق هذا الجسد الإنسانى ، ويأخذ معه الغيرة والشرف فيصبح الإنسان مجرداً من النفس الفاضلة الطاهرة ، ومن نور العقل المضيء له ، ومن شرف الفضيلة وغيرة الكرامة ، ويصبح بالصورة صورة إنسانية والحقيقة كما قال « دَرْون » حقيقة قرد يحاكى ما يلقيه عليه سيده الذى جعله آلة لسلب الأموال . وكذلك أهل الأديان التى حاربت العقول ليسوا

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

أناسى وإنما هم قردة ، وقد أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[٣] الآية . فإذا فسرنا القرآن بالقرآن يظهر لنا أن الإنسان إذا قبل الدين الذى يقهر عقله وسلم له كان كالقرد يحاكى فقط أو كان أضل من الأنعام .

المثال الثالث :

الإنسان الصانع أو التاجر يبخل أن يصرف نفساً من أنفاسه بدون منفعة تعود عليه ، وكما أنه يبخل بالأنفاس فإنه لا يقدم على عمل إلا إذا تحقق أنه ينتفع منه ، أو على الأقل يكون نيل المنفعة أرجح من عدمها . وإنما يعمل التاجر والصانع والمزارع لمنفعة تزول وفائدة تفنى ، ومع ذلك فإن العقل يأبى عليهم أن يصرفوا نفساً واحداً فى غير فائدة . فما للإنسان يصرف عمره كله بين بكاء ودعاء وبذل للأموال ، وذل وخشوع وعبادة لإنسان مثله من غير أن يربح شيئاً عاجلا ، مع اعتقاده أنه سيكون فى العذاب الأليم آجلا . ما ذلك إلا لأن هذا الإنسان فارقته النفس الطاهرة الإنسانية ، والعقل الذكى الآدمى المدبر للإنسان ، والشرف والغيرة . فأصبح جسماً حيوانياً تدبره الحرارة الغريزية وما تولد عنها من الملاذ والشهوات والتقليد الأعمى ، والعصبية الناتجة عن حمية الجاهلية . لا تعجب إذا قيل لك إن إنساناً بلغ من الكمالات إلى أن سمع كلام الله فقل نعم ، والإنسان مؤهل لأن يكون فى مقعد صدق عند ربه . وإن قيل لك إن إنساناً هوت به النقائص والرذائل حتى صار يرى الضار نافعاً والنافع ضاراً ، والخير شراً ، والشر خيرا ، فقل نعم ، لأن الهاوية والحطمة إنما أعدت للإنسان الذى ترك استعمال نعم الله فى التقرب إليه وصار عبداً لحظه وشهوته ، مقلداً لكل ذى ضلال ، لا يستنير بنور عقله ولا يهتدى بفكره .

المثال الرابع :

يكون الرجل التاجر عنده ما يكفيه لو أقام ببلده ، فتأبى عليه نفسه الكريمة وعقله الذكى أن يرضى بأقل ما يمكن أن يتحصل عليه ، فيشمر عن ساعد جده ويقوم فيطرـ

(٢) سورة الفرقان آية ٤٤ .

(٣) سورة المائدة آية ٦٠ .

بنفسه فى ميدان العمل ، مفارقاً الأهل والولد والعشيرة والوطن ، طالباً الغاية التى لو تركها يعد مقصراً ولا يقف به الأمل إلا دون ما هو قاصر عنه ، وهذا إنما ينتج من العقل الذى يبحث وينظر ، ومن النفس الكريمة التى تتشوف إلى المعالى ، فيكون هذا العامل فى مزيد فى كل نفس من البهجة والشهرة والوسعة فى الأرزاق ، ومن التلذذ بالثناء عليه والفرح بنفوذ الكلمة ، وكل ذلك فى عمل للدنيا الفانية : فمالنا نرى الإنسان المسكين يقلد أباه أو يقلد القس تقليداً أعمى بلا برهان يطمئن به القلب ، ولا حث على شرف نفس وعلو ينشرح به الصدر ، ولا خير عاجل ينشط به البدن . إن هذا ليس بإنسان بل ولا حيوان بل أضل من الحيوان ، ولا أضل من الحيوان إلا ما كان لا يحس ولا يتحرك .

المثال الخامس :

إن الله سبحانه وتعالى جعل الألم فى الأبدان الحية لحفظها من تفاقم الخطب ، فإن الجسم الحى إذا تألم بحرارة النار فر منها ، ولولا الألم لأحرقته النار ولم يشعر ، وإذا شعر بألم الجوع أسرع فأكل ، ولولا ألم الجوع لمات ضعفاً ، وإذا شعر بألم المرض بادر إلى الحكيم فعالج مرضه ، ولا الشعور بالمرض لأذهب المرض نفس المريض . وكما جعل سبحانه الألم حصناً للحى من الهلاك ، فكذلك جعل سبحانه العقل حصناً للإنسان من أمراض العقائد المهلكة ، وبلايا الأخلاق المفسدة للعمران ، وقبيح الأعمال المضرة بالإنسان . فمالك أيها الإنسان لا ينبهك إلا ما يؤلم بدنك ، ولا يوقظك من نومة غفلتك ورقدة جهالتك ما ألم بعقلك من المرض ، حتى سلم بلا بحث ولا نظر واستدلال ، وما ألم بنفسك الطاهرة الفاضلة المشتاقة إلى الفضائل والكمالات من الأمراض التى مسختها وجعلتها نفس بهيم تهوى فى مهاوى الضلال والكفر ، حتى أصبحت لا تحس إلا ما يحس به البهيم . ليتك أيها الإنسان لم تخلق ، خلقك ربك ملكا عظيما تسخر كل ما خلقه بما وهبه لك من العقل والفكر فضلا منه ، وأمرك أن تكون عظيما كبيراً لا تذل إِلَّا لَهُ سبحانه ولا تعبد غيره ، ولا يرضى أن يسخرك أحد سواه ، فأبيت إلا أن تكون قرداً أو خنزيراً . ويا ليتك كنت حيواناً نافعاً لبنى الإنسان ، ينتفع بلحمك وجلدك وشعرك وظهرك ، ولكن صرت أضل منه سبيلا . أعوذ بالله من تقليد يهلك صاحبه ، ومن دين يجعل أهله عبيداً لحجر أو لصورة أو لإنسان يأكل ويشخ ويمرض . لا تحكم أيها الإنسان على الصورة الإنسانية بأن حقيقتها إنسان حتى تعلم أن معانى الإنسانية كاملة فيها ، قال ﷺ : « المَرْءُ بأصْغَرَيْهِ قلْبه

وَلِسَانِهِ » وقال زهير بن أبى سلمى :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلمْ يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ
وكائِنْ ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادتُه أوْ نقصُه فى التكلمِ

المثال السادس :

الإنسان إذا ظهر بجلده وضح أو بهق أو برص اجتهد أن يخفيه عن أعين الناس ، ولو ظهر للناس وهو غافل خجل خجلا شديداً ، وقام الناس يعيبونه بما فيه . وكذلك إذا فعل فعلة يعلم أن العادة تقبحها أو أن العقل يقبحها اجتهد أن يسترها عن أعين الناس ولو أن آخر رماه بشىء من ذلك مع وضوحه منه ، يجتهد أن يبرىء نفسه منه ما استطاع من قوة وحول وطول . ولكن من الناس من سلبت منه القوة التى تميز بين الخير والشر وبين الضار والنافع وبين الحسن والقبيح . وذلك إما لعناد أو لاستحكام الشهوة أو لأمل عن وهم أو لعدم القوة المدركة . فيقوم الرجل منهم يحمل الصنم على كتفه ، أو صورة الإله الذى يعبده فى يده ، ثم يذكر من العقائد ومن الأخلاق ما يجلله بالخزى أمام العقلاء ، هو مع ذلك يقوم مجاهراً مفتخراً بما هو عليه ، ولم يقف عند هذا الحد حتى يلقى بنفسه على أجمل الكمالات وأكمل الفضائل فيشينها ، ويجعلها عيوباً ونقائص ، وينشر ذلك بين العقلاء فلا يراه عاقل إلا رحمه ، ولا يسمع كلامه إلا أشفق عليه ، وقال : سبحان الله ! الصورة صورة إنسان ، والعمل عمل خنزير ، أو جعل (الجعران) يترك الخنزير المراعى النضرة والغدران الصافية ويلقى بنفسه فى المراحيض العتيقة والمستنقعات القذرة ويتلذذ ويبتهج ، وكذلك الجعران يترك النجم الملتف (النباتات التى لا ساق لها) ثم يسارع إلى أن ينغمس فى العزرة متطيباً بنتنها ، متطهراً بمادتها النجسة ، متغذياً بسمها الزعاف . لا تعجب إذا رأيت إنساناً يعتقد أن خالق السموات والأرض ومبدعها الذى خلق من أنواع المخلوقات مالا يمكن للعقل أن يتصور حصرها ، وخلق الإنسان نوعاً من الأنواع وجعله أضعف المخلوقات قوة وأصغرها جسماً وأكثرها احتياجاً ، ثم جعل له العقل الذى لا يسلم إلا للحق ويقوم هذا الإنسان فيقول : إن رب السموات والأرض وما فيهن ورب ما فوق السموات والأرض مما لا يدركه العقل ضاقت به السموات والأرض وما فوقها ووسعه فرج امرأة .

فى فرج المرأة وضاق عليه فرجها فخرج إلى الدنيا مجسماً إنساناً : ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾[1] : ولم يقف عند هذا الحد الذى لا يتصوره المجنون ولا يتخيله الممرور ولا يتوهمه السكير ولا المبنَّج ولا مستعمل الأفيون والحشيشة . لأن هذا الخاطر لو خطر على قلب السكير أو المخدر بالبنج أو الأفيون أو الحشيشة لأفاق ، وانزعجت نفسه من خاطر يحكم العقل باستحالته ، ولكن حكم على الرب المجسم ، لأنه أعدمه جماعة من خلقه فصلبوه وقهروه وأذلوه وأخزوه ، ولم يقف عند ذلك الإنسان المسكين الذى هو أقل من النبات ، لأن النبات أهدى منه لأنك ترى النبات يتحول مع الشمس حيث تحولت فيواجهها زهره وورقه لينتفع بها . لم يقف الإنسان عند هذا أيضاً حتى قام فألقى بنفسه فى هاوية الخزى بأن نظر بعين رمداء إلى قرص الشمس ، فقام يقبحها ويشنع على نورها وحرارتها ، وشاركه أمثاله الذين سلبت قوة الإدارك منهم والتمييز ، وقام الإنسان يأتى بالفضائل فيجعلها رذائل وبالمحاسن فيجعلها قبائح حتى قام يشنع على الإسلام تشنيع الخفاش على الشمس ، أو اللصوص على القاضى العادل ، أو العالة على الناس على الغنى المقتصد الحكيم ، الذى يحب لأخيه أن يعمل وينتفع بعمله . وقد بينت الأنوار المشرقة التى حجبت الجهالة أبصارهم الكليلة عن رؤية محاسنها ، ولا تنقص الشمس إذا رأى كليل البصر نورها ظلمة ، ورأى الفضائل رذائل لأنه مفقود العقل .

وهنا أقول بملء فمى : دعونا من تلك الأباطيل ، وهلم بنا نقابل بين العقيدة والعقيدة ، والعبادة والعبادة ، والأخلاق والأخلاق ، والمعاملات والمعاملات ، التى هى أصول الأديان ، وبالأخص العقيدة . ولتكن المقابلة بين تلك الأصول الأربع فيما ورد بطريق التواتر عن الصادِقَيْنِ عليهما الصلاة والسلام ، أو بسند صحيح بشروطه المعقولة ، أو فبينوا لنا ما أتى به الإنجيل من تلك الأصول الأربع ، إن كان أتى منها بشىء وأقيموا الحجة عليه أنه ورد بطريق صحيح عنه عليه السلام ثم بعد ذلك هلم بنا نعرضه على العقل الذى كلفنا الله بسببه ، فإن قبله العقل وسلمه صدقنا وآمنا ، وإن لم يقبله العقل ولم يسلمه رددناه على المسيح وعلى غيره . لأن الله سبحانه وتعالى لم يرسل الرسل للناس إلا لأنهم عقلاء ، ولم يخاطبهم إلا بقدر عقولهم ولم يبين لهم من أسراره المقدسة وأنواره العلية إلا بمقادير العقول . وها هو القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ ، وقف العقل خاشعاً خاضعاً لها ، فرحاً مبتهجاً بها ، وكل كلام وصل إلينا وأخبرنا أنه من كلام رسول الله عرضناه على عقولنا ، فإن قبلته سلمنا وآمنا وصدقنا أنه كلام رسول

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٦ .

الله ، وإن لم تقبله اتهمنا رواة الخبر وطالبناهم بالحجة ، أو حكمنا عليهم بالكفر ، سر. قوله ﷺ : « من كذب علىّ متعمِّداً فليتبوأ مِقْعَدَهُ من النار » .

كان الأئمة رضى الله عنهم إذا سمعوا من يقول : قال رسول الله ﷺ ، أنصتوا ، فإن صح عندهم ما يقول عقلا ونقلا ، سمعوا منه وأكرموه ، وإن صح عقلا لا نقلا طلبوا منه أن يبين لهم شيخه ، وإن لم يثبت عقلا أنكروا عليه وآذوه وحبسوه وفسّقوه . ذلك لأن الدين أمرنا فى أصل أصوله أن لا نكون مقلدين ، فجعل أول واجب علينا النظر والبحث بالعقل وطلب الدليل والبرهان ، لنخرج من ذل التقليد فى التوحيد ، وأكثر علماء المسلمين على أن المقلد كافر . وإنى أعوذ بالله من جهل يجعلنى أنسى الحق ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يهب لى مزيد علم يجعلنى على كمال اليقين وحقيقة التمكين ، ويحفظنى من الشر والأشرار إنه مجيب الدعاء .

ينكرون الحج

لا عجب إذا صار السكر والفلفل سواء عند الجرذان (الفيران) ، لأنها خلقت محرومة من الذّوق . وكذلك الإنسان الذى يعميه العناد والجهالة ، لا تعجب إذا رأى الفضائل العمرانية والكمالات الاجتماعية وما به رق الإنسان وعروجه إلى مراقى الشرف والمجد بالتعارف والاتحاد والتبادل نقصاً وعملا صنمياً .

كنت أحب أن أمسك قلمى عن بيان فساد تلك العقول ، لأن تلك الدعاوى لا يدعيها إنسان عاقل ولا تخطر على قلب حي بنور الفكر ، اللهم إلا على قلب أحمق يبغض الفضائل لأنها فضائل ، والكمالات لأنها كمالات . ولولا أنى أحب الخير لبنى نوعى وأغار عليهم غيرة الأخ للأخ فى الإنسانية ، ما اعتنيت بهم ولا التفت إليهم . يظن السوء الإنسان ، فيرى الحق باطلا والنور ظلمة والهدى ضلالا . قبل أن أشرح فضيلة الحج العمرانية وخيراته الاجتماعية ، أفهمك أيها الإنسان الجاهل بالكتب السماوية المدعى أنك من أهلها .

الحكمة فى إنزال كتب الشرائع السماوية :

إن كتب الشرائع السماوية أنزلها الله تعالى لتكميل النفس الروحانية وسعادة الجسم الإنسانى ، ولا كمال للنفس إلا بالجسم ، ولا سعادة للجسم إلا بالنفس . ولما كان الناموس أنزله الله تعالى لكمال النفس والجسم ، كان ولا بد أن تكون فيه إشارات نفسانية ، ورموز روحانية ، وتصريحات حسية ، حتى يتحصل الإنسان على كماله الحقيقى ، ويفوز بالسعادتين بصورته هذه وحقيقته هذه . ولما كان الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا من عند الله تعالى خالق الخلق ، وكانت بعثتهم لغرض واحد هو تذكير الخلق بما لله على عباده من الفضل العظيم ، والنعمة ليشكروه بالعبادة التى فرضها عليهم ، وماله من القوة والقدرة ، ليستعينوا به سبحانه فيما لابد لهم منه ، وإنه واحد أحد لا شريك له فيقبلوا عليه بكليتهم ملتفتين عمن سواه وما سواه ، وكان لابد للإنسان الذى هو مجموع النفس بأنواعها والجسم المركب من العناصر المختلفة من توجه روحانى بإخلاص وصدق ، إلى عظيم كبير لا تدركه الأبصار ولا تحيزه الأفكار ، ولا تمثله الخيالات ولا تحيط به العقول ، ولا بد للجسم من وجهة تناسبه تحيزاً يشعر بها قلبه أنه توجه لها بجسمه إطاعة لأمر ربه ، واقتداء بعمل رسله وتعظيما لشعائره . وما

قرب تنزيه عن المكان والكيف ، قرب حب وود وتعظيم وإجلال . هذه هى سنة الله تعالى التى أنزلت بها كتب الناموس ، وعادته سبحانه وتعالى التى أظهرها لرسله وكلفهم بالعمل بها . لعلك أيها السائل تنكر علىّ تلك السنة الإلهية ، ولكن لا تعجل .

أسرار النواميس الإلهية عند الجاهل أعمال صنمية :

ما هو التابوت الذى كان يحمله موسى عند الجهاد وعند الشدائد ، وعند الاستغاثة والنجدة ، وذاك موسى كليم الله ؟ لم يكن التابوت إلا صندوقاً من الخشب ، فيه قطع بالية من سفينة نوح عليه السلام . وماذا قال اليهود فيه وقد أمر الرب كليمه أن يحمله أمامهم وهو كليم الله ، ويستنصر به ويستسقى به ويستفتح به ، قالوا : إنه أنزل مع آدم من الجنة . أنا لا أنكر عليهم قولهم ولا أسلمه لهم ، فإن الرب الذى أنزل الناموس بمشيئته يقدس ما ينزله من الجنة ، وبمشيئته يقدس ما شاء من الأرض من طين أو ماء أو شجر أو مدر . فحمل التابوت هذا عند من لا يعقل أسرار النواميس عمل صنمىّ ، وعند من يعقل النواميس يقول:الرب يحكم على خلقه بما شاء ، ويأمرهم بما شاء ، ويختبرهم بما شاء . هذا التابوت بعد موسى رفع إلى السماء كما بين فى التوراة ، خصوصاً عندما فشا الزنا والفسوق فى بنى إسرائيل . ولما قام العمالقة لهلاك شعب إسرائيل بشرهم الرب فى التوراة أن التابوت ينزل مع الملائكة . هذه أسرار الناموس وغرائب آياته ، تحجب العقل المكسوف نوره عن أن يدرك حقائق الحكمة وغرائب الآيات .

نزل التابوت تحمله الملائكة ما الذى كان فيه ؟ كان فيه : نعلا موسى وثيابه وعمامة هارون وعصا موسى . سبحان الله ! نعلان لرسول من رسل الله يبلغ بهما التعظيم إلى درجة أن يكونا فى التابوت ، ويكون هذا التابوت به النصرة وبه الفتح وعود المجد لشعب إسرائيل ، وتنزل به الملائكة ، تلك مرموزات الناموس لا تكشف إلا لمن جاهد نفسه مجاهدة يطهرها به من خبث الضلالة وظلمة الجهالة ، ودخان العناد ونار العصبية للآباء ، ويخرجها من هوة الطمع فيما يفنى .

انتقل بنا إلى عصا موسى ، ما هى عصا موسى ؟ غصن من شجرة ربما زرعها كافر ، وسقاها كافر ، وقطعها من الشجرة كافر ، وإذا أراد الله أن يظهر الآية يظهرها كيف شاء ، وبما شاء وفيما شاء . كانت تلك العصا عند شعيب عليه السلام ، ثم أعطيت لموسى ، فقدسها الله وبارك فيها حتى صارت كأنها كلمة الله ، وصار موسى كليم الله

بدونها إنساناً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً . فالقادر على أن يجعل العصا كلمة كن فى يد موسى قادر أن يجعل هذا كله بكلمة من موسى وبحركة يده وبأى عصا من العصى ، ولكنه سبحانه يقدس ما شاء ، ويظهر ما شاء ، ويضع سره فيما شاء وفيمن شاء . وهذا أيضاً رمز من مرموزات الناموس الأعظم .

انتقل بنا إلى الخليل أصل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ووالدهم الأوسط ومبدأ الفيض الأقدس . ثبت بالتواتر وبالأثر أنه عليه الصلاة والسلام هو وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، رفعا قواعد البيت ووضعا هذا الحجر بيدهما عليهما السلام وأُخبِرا أنه كان مع أبيهما آدم أنزله معه من الجنة . فما للإنسان ينحنى رأسه إذا ذكر التابوت ويصدق أن صندوقاً من الخشب نزل من الجنة ولا ينكر على موسى الكليم أن يحمله عند الشدائد ، ثم إذا سمع أن التابوت نزلت به الملائكة تحمله إلى طالوت عند قتال العمالقة ، وأن التابوت كان فيه نعلا موسى عليه السلام ينحنى تعظيماً للتابوت وما فيه ، ويعترف أن التابوت باركه الله وجعل فيه سر الفتح والنصر ، ولا يخطر على قلبه أنه كالصنم لبنى إسرائيل . ومَن موسى عليه السلام فى جانب الخليل عليه السلام فى جانب آثاره العلية وآياته الجلية ، وهو عليه السلام عند خروجه من مصر لبنى إسرائيل أمسك عليه مسالك الخروج حتى حمل معه الصندوق الذى به جثة يوسف الصديق بن يعقوب عليهما السلام ، فهل كانت تلك الجثة صنماً لموسى عليه السلام ؟ ما للإنسان ينسى عيوبه وينظر الحسن فى أخيه قبيحاً ؟ كان التابوت صندوقا من الخشب فيه رضاض من سفينة نوح عليه السلام باركه الرب ، حتى أمر كليمه أن يحمله وجعله وجهة للأجسام حتى لا تقع الأعين عليه إلا اطمأنت القلوب ، ولا تمسه الأيدى إلا سرت فى القلوب روح يقين وإقدام ، ولا يفتح إلا حصل الفتح والنصر وانشرحت الصدور . سبحان الله ، ألأنه صندوق خشب داخله نعلان ؟ لا . ولكن الرب يبارك فيما شاء ويبارك فيمن يشاء . فكذلك الكعبة التى هى حجرة بناها الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام . وهذا الحجر الأسود هو الحجر الذى وضعه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ورفعا هذا البيت بأمر الرب جلت قدرته ، وبشرهم الرب أن هذا البيت مبارك ، وبشر إبراهيم بأنه سيكون من ولده إسماعيل أمة مباركة يظهر فيها خير رسول . فكان هذا البيت هو الذى بناه الخليل وابنه ، وباركه الرب كما بارك فى التابوت ، وبارك فى عصا موسى ، وبارك فى الحجر الذى كانت تتفجر منه الأنهار ، وبارك فى الطينة التى خلق منها آدم وأسجد له الملائكة بنص التوراة . وهذا الحجر هو الحجر الذى لمسته يد

الخليل ويد ابنه ، وأخبرا أنه نزل مع آدم عليه السلام . وإنى لمصدق أن الرب باركه ولو لم يكن من الجنة فإن الرب كما تقدم يبارك فيما شاء وفيمن شاء ، والعرش والأرض سواء فى نظر الرب ، ولا فرق بين الأرض السفلى والعرش الأعلى بالنسبة للرب ، ولكنه سبحانه يرفع ما شاء على ما شاء ، والرب على عظيم عن القرب المكانى من العرش أو الأرض، والعرش والأرض فى قبضته سبحانه ، وفى حيطة علمه وفى تدبير قدرته ومشيئته ، ولو شاء أن يجعل قطعة من طين الأرض ترتفع حتى تكون فوق العرش لفعل سبحانه ، وقد فعل فإن الإنسان من طين وبعض أفراده من الرسل الكرام والصديقين والشهداء يكونون فى جوار الرب يوم القيامة فوق عرشه . فمنزل الناموس سبحانه وتعالى بارك فى هذا البيت وبارك فى هذا الحجر وجعله رمزاً من مرموزات الناموس ، لا يسعنى أن أكشف تلك الأسرار العلية الغامضة عن العقول المحجوبة بالحظ والهوى ، فى مقام أدعو فيه أخى فى النوع إلى نجاته من هاوية العذاب إلا بقدر معلوم .

حكمة الحج وتقبيل الحجر الأسود :

هو أن المسلم يقبل الحجر مستحضراً اليد التى وضعته ، وكأنه يبايع تلك اليد على اتباع الإسلام الذى هو ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأن الله تعالى أكرم خليله عليه الصلاة والسلام وجعل من ولده إسحاق أمة إسرائيل وأكرمها بالرسل والأنبياء حتى أنجز ما قدر سبحانه وأراده، وأكرمه عليه الصلاة والسلام ، فجعل من ولده إسماعيل عليه السلام الأمة العربية ، وأكمل نعمه على جميع خلقه ، وأتم فضله عليهم بأن جعل من الأمة العربية خاتم رسله الذى بعثه لكافة الناس بشيراً ونذيراً ، واستجاب لخليله دعوته التى دعاها لإسماعيل وبنيه بأن يجعل منه أمة عظيمة بقوله : ﴿ **رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ** ﴾[1] إلى آخر الدعاء الذى دعاه ، وهو معنى قول موسى عليه السلام : يكون من بنى عمنا ، إلى آخر البشرى وبنو عمهم بنو إسماعيل . فكان الإسلام هو ملة إبراهيم الحقيقية التى ، كان عليها هو وأولاده عليهم السلام ، وبرهان ذلك: جعل بيته كعبة للمسلمين .

البرهان الثانى : أن الله فرض حجه على المسلمين بشروطه المخصوصة ولم يكن عملا صنمياً وإنما هو عمل للتقرب إلى الله تعالى ، وللقيام بحقوق عباد الله ولإطاعة أمر الله والاقتداء بسنن رسل الله . وكأن المسلم بلمس الحجر الأسود يعاهد الخليل عليه السلام

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٩ .

على العمل بإخلاص ، معتقداً أنه نفذ أمر الله تعالى وقلد رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وتقرب إلى الله تعالى بأكمل العبادات التي بذل فيها ماله ، فوسع على خلق الله فى السفر إلى مكة ، وبذل فيها نفسه بمفارقة الأهل والمال والوطن ، وشهد من عجائب قدرة الله وغرائب حكمته سبحانه وآثار رحمته ما جعل قلبه يطمئن بالقدرة وصدره ينشرح بالحكمة ، وجعل الإيمان ينمو فى قلبه حتى يبلغ درجة اليقين ، ثم قابل إخوته المؤمنين فانتفع بعلم العالم وحكمة الحكيم وحلم الحليم وأخلاق الكريم وعمل الموفقين ، وشهد من أنواع العادات واختلاف الألوان والأشكال واللغات ، ما جعله يحب الله سبحانه وتعالى ويعظم جنابه العلى . وبالحج تتجدد العافية بعد فقدها والصحة بعد زوالها ويتعلم التدبير والحكمة والمداراة والترتيب وينشط بعد الكسل ويشجع بعد الجبن ويسخو بعد البخل . بالحج يمكنه أن يجمع بين الحج والتجارة فيتجر تجارتين للدين والدنيا ، فيأخذ ما يحتاج إليه أهل الحجاز ويجلب ما يحتاج إليه أهل مصره . حكمة لا تنكشف إلا لمن فهم أسرار الكتب السماوية وذاق حلاوة الإيمان بها والتسليم لها .

سؤال لمن انكر حكمة الحج وأسراره :

أسألك أيها المنكر حكمة الحج وأسراره على جهل منك بفوائدها الجلية وخيراته المحسوسة ، ما هو هيكل الرب ؟ وما هو المذبح الذى كانت تذبح عليه الأنفس أمام هيكل الرب وما هو القربان الذى كانت تأكله النار ؟ أكوشفت بأسراره أم ظهر لقلبك خفيه ؟ ما لك والإنكار على الحج ونوره ساطع ، وسره باهر ، وخيره وافر ، وبركاته مفاضة ، وما هو الدهن المقدس الذى كان لا يدهن به إلا نبى ! أمن الجنة نزل ؟ أم ذلك دهن لبن النعجة التى كانت نعجة الخروف المذكور فى رؤيا يوحنا الذى له قرون من ذهب ونعال من ذهب ، وأنه هو الرب ، وأنه ذبح ؟ أنا معتقد أن يوحنا نفسه لو سمع أنه نسب إليه هذا لصعق فضلا عن أن يقوله بنفسه ، وليس جعل خروف له قرون من ذهب ونعال من ذهب إلهاً يتنزل به الناموس ، فإن كل مرموزات الناموس نزهت الجناب العلى عن التشبيه والتحديد وعن المثيل والنظير والولد والوالدة ، وكل مرموزات الكتب السماوية لإظهار آيات دالة على أنه واحد مُريد فاعل لما يشاء يأمر بما شاء وينهى عما شاء له الخلق والأمر وهوعلى كل شيء قدير .

آثار الرسل السابقين بركات حِسيَّة :

فالتابوت وعصا موسى ، وحجره الذى تفجرت منه ينابيع الماء ، وصنع السفينة قبل الطوفان ، وناقة صالح عليه السلام ، وحمل سارة بإسحاق بعد اليأس ، وبناء بيت

للرب ، وعمل مذبح يذبح عليه أمام الرب وماء المعمودية ، كل تلك إشارات من إشارات الكتب السماوية تنكشف غوامضها للمقربين المحبوبين ، وكذلك الأرض المقدسة والصخرة المقدسة . فالله سبحانه وتعالى بارك فى النار التى ألقى فيها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأبقى فيها الإشراق وأبطل منها الإحراق ، وبارك فى ناقة صالح فكانت وجهة أمته ، وبارك فى حمار العزير فكان آية كبرى ، وبارك فى كلب أهل الكهف فكان عجيبة للعقول ، وبارك فى عصا موسى عليه السلام فكانت ككلمة كن . وكم بارك لأنبيائه ورسله : فمنهم من جعله يقبض الحديد محمياً بيده ، ومنهم من جعل له بساطه يحمله ويمشى به فى الهواء،ومنهم من بارك له فى يده فكان لا يمس بها ميتاً إلا أحياه الله ، ولا مريضاً إلا شفاه الله . وكل تلك آثار رسله عليهم الصلاة والسلام .

معجزة خير الرسل نور حكمة وبيان :

وقد رفع الله تعالى خاتم رسله وأمته عن كل تلك البركات الحسية التى هى قاصرة على الأجسام وربما أطفأت نور العقول السليمة ، لأن العقل إذا شهد آية يجهل سببها يعجز عن التصرف فيها ويقوم الوهم والخيال يقضيان بلا ميزان ، ولكن الله تعالى جعل معجزة خاتم رسله وبرهان خير خلقه المبشر به كل رسله السابقين ، نور حكمة وبيان ، وأسرار موعظة وفصل خطاب . فثبتت العقول على الحق وقبلته بتسليم فكمل التوحيد بكمال التنزيه عن التشبيه والتحديد والإدراك . وصار المسلم عندما يتوجه إلى الكعبة يعلم أنه إنما يسعى قياماً بأمر ربه وزيارة لبيت رفع قواعده الخليل وابنه ، لأن الله تعالى بارك موضعه وأمر خليله أن يرفع قواعده.ثم يقرب من الحجر معتقداً أنه لا ينفع ولا يضر وضعه خليل الله بيده وبارك الله تعالى فيه فيقبله اقتداء برسل الله واتباعاً لسننهم عليهم الصلاة والسلام . وكيف يظن الجاهل بالعقيدة الإسلامية وأصل العقيدة أن سيدنا محمداً ﷺ عبد الله ورسوله ، وأن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا إذا أمرهم ﷺ بأمر يتعلق بالجهاد ، سألوه أذلك أمر من عند الله أم من عندك يارسول الله ؟ فإن قال : أمر من عند الله ، سمعوا وأطاعوا ، وإن قال : إنما هو الرأى ، قالوا : الرأى كذا وكذا يارسول الله ، ذلك لأن الله تعالى ملأ قلوبهم عزة بالتوحيد ورفع نفوسهم بالتوحيد ، فإذا كان سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ أمره الله تعالى أن يشاورنا فى الأمر وهو النور المبين والسراج المنير . فكيف يتصور عاقل فقه العقيدة الإسلامية أن مسلماً لا يعلم من الدين إلا لا إله إلا الله محمد عبد الله ورسول الله يعتقد أن الحجر صنم ؟ وهو إنما يقبله لأن يد خليل وضعته ، ولأن الله بارك فيه وبارك فى البيت .

ذلك الإنكار إنما جاء من دين أسس على أن رجلا حل فيه الرب أو أن الرب حل فى فرج امرأة وتجسم إنساناً ، أو أن الرب مجهول فى ثلاث ، ثم أسسوا دينهم بعد ذلك على أن الذى يترك أكل اللحم والسمن ويترك الزواج يحل فيه الرب . والحقيقة أن الذى يترك أكل اللحم والسمن يكون حماراً يأكل النباتات أو فرساً أو جملا ، والذى يترك الزواج يكون نباتاً يتغذى وينمو ، والحقيقة أن النبات له عضو ذكورة وأنوثة . فإذا كان الإنسان ينحط عن رتبة الإنسانية إلى الرتبة البهيمية ومن الرتبة البهيمية إلى الرتبة النباتية يحل فيه الرب ويكون منزهاً مقدساً يخلو بالنساء الجميلات ويغفر السيئات ويعفو عن الخطايا ويبيع الملكوت ويحل ويحرم : من كانت هذه عقيدته لا شك أن أعماله جميعها تكون صنمية .

وإلا من كانت عقيدته التوحيد ، والرسول الذى بعثه الله بالتوحيد للناس جاء بالمعجزات التى سجدت العقول لها ، وعجز الخيال عن تمثيل كمالاتها ، كشف للعقل الحجاب حتى أشهده أنه عبد الله ورسول الله ، وأنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا أن يشاء الله ، وأنه لا يعلم الغيب ، وأنه إنما هو بشر مثلنا أوحى الله إليه أنه لا إله إلا الله ، وأنزل عليه الوصايا والتعاليم التى استقبلها العقل بتسليم وإخلاص وتصديق ، لا شك أن أعماله تكون مؤسسة على تنزيه الحق جلت قدرته عن النظير والضد والمثيل ، كل أعماله تكون موجهة للواحد الأحد المنزه عن أن يكون محلا للأشياء وعن أن تكون الأشياء محلا له سبحانه ، هو المنفرد بنفسه المتوحد بأوصافه ، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شىء . بائن من جميع خلقه لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض ، ليس فى ذاته سواه ، ولا فى سواه من ذاته شىء ، ليس فى الخلق إلا الخلق ، ولا فى ذات الله إلا الخالق ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

أفمن كان هذا أصل دينه يعمل عملا صنميا ؟ :

هذه العقيدة التى يجب أن يعقد عليها قلبه الصبى المسلم من فطامه ، وتنمو معه فى كل يوم جديد عندما يبتدىء فى حفظ كلام الله القديم ، وعندما يسمع قوله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾[1] وقوله سبحانه وتعالى له : ﴿ **قُل لَّاأَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَاضَرّاً** ﴾[2]

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٨ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3]
وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[4]

فلا يحفظ آية من القرآن المجيد إلا وتنمو العزة فى نفسه ، وتعظيم الله وحده فى قلبه . أفمن كان هذا أصل أصول دينه يقال إنه يعمل عملا صنمياً ؟ إنما الذى يعمل عملا صنمياً ، من اتخذ إنساناً يأكل ويشرب ويبول ويتغوط وينام ويجوع ويمرض ويفرح ويحزن ، ويخاف من الهوام ومن الوحوش ، ومن إنسان يعاديه . وبعد تلك النقائص التى يتنزه عنها الرب وينزه جنابه العلى عنها عقل الأطفال إذا نظر ما حوله من الآيات وما فوقه ، ثم يقول بعد تلك الخسة والنقائص : هو الله الذى خلق السموات والأرض .

والله لو أن إنساناً وقف أمامى فقال : لتكن السماء أرضاً والارض سماء فكانا كما يقول وشهدت ذلك بالحس ، وقال : إنى لست إنساناً ولكنى ملك من السماء لكذبته فى دعواه أنه من الملائكة ، وحكمت أنه إنسان له تأثير نفسانى على الخيال الإنسانى . فكيف بإنسان أتى بمعجزة لم تخرج عن القدر الذى أهَّل الله الإنسان لنيله من الطب ، فإن كثيرا من الأطباء برعوا فى علم الرمد حتى يمكنهم أن يزيلوا ما على العين من الغشاوة والماء الذى حجب نورها . ومن الحكماء من يعلم أن يعالج من حصلت له السكتة بطريق التنفس الصناعى ، ويعالج من أصابته النقطة بالاستفراغات والدلك . تلك الأمور التى فى العالم الطبيعي لها نظائر ، تجعل أهل العقول السخيفة يجعلون من اتصف بها إلهاً يعبد من دون الله ، أو ابن الله أو حل فيه الإله ، وتنسى تلك الأعمال الموجبة للفضائح أمام العقول وتنكر الحق الصريح البين على أهله . مالك وللجولان فى ميدان وقف العقل دونه خاشعاً ؟.

الشمس مشرقة أيتها الحيوانات الليلية ، لم يخل الأفق من الشمس العلية . وإنى أسأل الله أن يحفظ بنى الإنسان من شر أكابر المجرمين ، الذين أفسدت عليهم السيادة والرياسة الدين والدنيا ، وأنستهم يوم الحساب وشديد عذاب الهاوية ، وأن يمن علىّ وعليهم بنور يبين لنا الحق والباطل ، فنتبع الحق ولو لم يكن عليه آباؤنا ، ونجتنب الباطل ولو كان عليه آباؤنا ، ويمنحنا السعادة الحقيقية والخير إنه مجيب الدعاء . ويعيذنا من الضلال والضلالة لنعمل بالكتاب والسنة ، وأن يحفظنى بحفظه من الشر وأهله ، ويكرمنى وأهلى وأولادى وإخوانى والمسلمين .

(٣) سورة البقرة آية ١٦٣ .
(٤) سورة الأنبياء آية ٢٢ .

الحج من مرموزات الكتب السماوية ، وقد بينت لك ما ظهر لأصغر مسلم يعتقد أن الله فرض عليه الحج ، ولو أنك أسلمت لله رب العالمين ، وتوجهت إلى الحج تأدية لما أوجبه الله عليك ، لانكشفت لك أسرار تلك المرموزات ، بما يجعل عقلك يعقلها عن قلبك الذى جعل الله له نوراً يفقه به أحكامه ، ويقوى به يقينك والسلام على من اتبع الهدى .

الكلام فى بعض آيات القرآن المجيد

ليس بعد العيان بيان ! ومن لا يسمع صوت الرعد فهو أصم ! ومن لا يرى الشمس ضحوة فى النهار الصائف فهو أعمى ! ومن أنا حتى أخاطب الصم البكم العمى الذين لا يعقلون ، أو أبين لمن فى القبور ، لكنى أضرب مثلا يعقله العالمون :

غابة فيها سبع وأنواع أخرى من أنواع الوحوش ، وجاء السبع إلى الأنواع الكثيرة من أنواع الوحوش فقال : أنا ملك تلك الغابة بما منّ الله به علىّ من الجرأة وشدة الافتراس والقوة ، ومن لا يعترف بملكى على تلك الغابة فليبارزنى إما منفرداً ، أو اجتمعوا جميعاً وبارزونى ، وزأر فيها زأرة فك مفاصلها حتى اقشعرت جلودها ، وصرعت جميعاً من زئيره ، وبايعته على أنه الملك عليها . وصار سكان الغابة من كل أنواع الوحوش والغزلان وأنواع الطيور المختلفة خاضعة لهذا السبع العظيم . وكان للسبع وأتباعه غابة أخرى يمضون فيها فصلا من فصول السنة ، فلما أن انتقل الملك ورعيته إلى الغابة الأخرى ونزلت الأمطار على الأرض ، تولدت الضفادع ، مفتخرة أن لها ملك الغابة ، وأن أحداً لا يقهرها ، حتى جاءت سلحفاة فقالت للضفادع : إن تلك الغابة يملكها السبع الذى زأر زأرة صرع بها كل أنواع الوحوش والطيور وأخضعها له ، فقامت الضفادع تحقر تلك الزأرة وتفتخر بصوتها ، وتنقص زئير الملك العظيم ، فقالت لها السلحفاة : جهل الحقيقة مؤد إلى الغرور ، وهل بعد أنى رأيت أنواع الوحوش المفترسة والطيور الجارحة والحيوانات الهائلة ، تصعق لزأرة السبع أغر بما تدعيه بجهلك وضعفك ؟ إليك عنى ، فإنما يغتر بك من هم أضعف منك صوتاً ، وأخس منك فكراً . هذا المثال يطابق الحقيقة فى نفس الأمر ، وذلك لأن كل رسول أرسله الله تعالى يمده من المعجزات بما يكون معتنى به عند الأمة التى أرسله الله إليها .

مثال ذلك : أرسل الله سيدنا موسى فى عصر كان السحر فيه معتنى به ، وكان الساحر سيد قومه ، فجعل المعجزة من هذا النوع وكل من قام بعد سحرة أهل هذا الزمان ، فقال : إنى يمكننى أن أقهر عصا موسى ، فهو كاذب جاهل ، لأن أكابر السحرة خروا ساجدين ، إعظاماً للآية وإجلالًا لمن أنزلها . وأرسل الله عيسى بن مريم فى زمان ساد فيه الطب ، وكان الطبيب عظيم قومه ، فجعل معجزته من هذا النوع . فكان الطبيب يهىء المريض للعافية وقد يشفيه الله ، وكان عيسى بن مريم عليه السلام لا يهىء

المريض للعافية ، ولكن يضع يده عليه ويقول: على قدر إيمانك فيشفيه الله تعالى من الأمراض المعضلة التى ليس للطبيب فيها يد .

ثم ما هو فوق ذلك ، كان يضع يده على الميت ويقول : أحياك الله ، فيجيبه الله . ومن جاء بعد المسيح وقال : إنى لا أعترف بعمله لأنى أعمل عملا أجل من عمله ، فذاك كاذب مغرور جاهل . وكذلك بعث الله رسوله محمداً ﷺ فى زمان سجد أهله للفصاحة والبلاغة ، حتى بلغت العناية بالفصاحة والبلاغة مبلغاً ، هو أن القبيلة الدنيئة النسب البعيدة عن الشرف اللئيمة الطبع ، إذا ظهر فيها شاعر أو خطيب ، عزت بعد الذل ، ورفعت بعد الضعة ، وشرفت بعد التعسة ، وانتسب إليها من ليس منها ليفتخر بها . وبلغ من تعظيم الفصاحة والبلاغة أن جعلت بعض القصائد تعلق على الكعبة فتعبد ويسجد لها كالأصنام . فكانت القصيدة أو الخطبة فى منزلة الإله عندهم ، وقائلها سيد عظيم تسود به قبيلته على أهل عصره ، فجعل الله معجزته ﷺ مما تسجد له العقول وتخشع له القلوب . وهو الكلام الذى كان زئير الأسد مثال له . فسجد له فحول الفصحاء وفطاحل البلغاء ومَنْ أعجزوا بفصاحتهم الفصحاء وأخفى نور شمسه أقمار وأنجم البلغاء ، قال اجتمعوا فأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، وهم ألد أعدائه وأشر حساده ، يبحثون عن نقيصة يرمونه بها أو خسيسة ينسبونها إليه ، أو قبيح يصفونه به ، فقطعت كمالاته العلية أعناقهم ، وأخرست أنواره الجلية ألسنتهم ، فحاربوه بالسيف ولم يجدوا فيما أنزله الله عليه مجالا للإنكار ، ولا منفذاً للاتهام ، وهم معدن البلاغة والفصاحة وأصل الحكمة وأهل الجدل والبحث وفصل الخطاب .

بيان إعجاز القرآن لجميع بنى الإنسان :

لو أنى أوردت عليك أصغر آية فى القرآن قام فصحاؤهم وبلغاؤهم وحكماؤهم ليأتوا بمثلها فنادتهم ضمائرهم : الشمس تخفى كل نجم وكوكب . تلك الآية هى قوله تعالى : ﴿ ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[1] فقالوا : القتل أنفى للقتل . انظر إلى حلاوة الآية لفظاً وجمالها معنى فى قوله : (القصاص) ولم يقل : القتل ! وهى تروح القلب بروح محاسنها . وانظر إلى قوله : (حياة) وهى طهور للروح ونعيم للنفس إن سمعها الجانى فقه منها أن رضاه بالقتل حياة طيبة أبدية له ، فيقدم نفسه مسروراً فرحاً ، وإذا سمعها من يهمّ بالجناية خشع قلبه لما تومى إليه من الرحمة والشفقة ، وما تشير إليه من العدل والمؤاخذة

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .

وأناب إلى ربه . انظر إلى ما فى تلك الآية القصيرة من الحكم الاجتماعية والكمالات العمرانية ، وما تؤثر به على النفوس من سر التعاطف والتآلف ، وما تنتجه من الرحمة والشفقة . ثم لا تنظر نظر مقابلة بين كلام الخالق والمخلوق ، فإنه ليس بينهما نسبة . ولكن الأخماص ؟ يشحذ النفوس لتلقى الكمالات . القتل أنفى للقتل ، انظر إلى بشاعة اللفظة فى قولهم القتل ، فإنها تجعل القلب يحترق بنار الغيظ وحب الانتقام ، ويبث فى النفس حمية الجهل والحماقة والجرأة على أقبح القبائح . فكان الرجل يقتل بعبده سيد القبيلة ، ويقتل برجل قبيلة أخرى ، وربما محقت القبيلة لقتيل قتلته من الأخرى ، كل ذلك نتيجة : القتل أنفى للقتل . وهى كلمة أكابر حكمائهم وأعاظم فصحَائهم وفحول بلغائهم . لفظ القتل لا تخصص المراد ، فإن القتل كلمة دالة على حدث وعلى من يقع الحدث ، لا قرينة تعين وقوعه على الجانى فقط ، بل يجوز أن يقع على كل مَن له اتصال ما بالجانى ، ولكن كلمة (القصاص) كلمة جامعة مانعة تعين المراد ، فإن القصاص لا يكون إلا من الجانى فقط . ثم انظر إن كلمة الله تعالى مع أنها كنز تضمنت من الحكم والأسرار والخيرات العمرانية والبركات الاجتماعية والكمالات الأخلاقية ، وتزكية النفوس وتطهيرها من لقسها ، مالا يمكن أن تسعه بطون الدفاتر ولا تجمعه القلوب ، فإن حروفها عشرة أحرف ، وحروف الكلمة الأخرى خمسة عشر حرفاً فسبحان القادر الحكيم . هذا هو كلام الله حقاً الذى أعجز البلغاء وحير الفصحاء . وهل بعد أن سجد فحول العرب الذين كانت السيادة فيهم بالفصاحة والبلاغة ، يأتى قوم أعجام ينكرون ، وإنما مُثلهم وما هم فيه كما قال الشاعر :

كناطح صخرةٍ يوماً ليوُهِنَها   فلم يضرها وأوهى قرنهَ الوعل

عَجْزُ أهل البلاغة أمام القرآن يثبتُ عجزَ غيرهم :

عجباً ! أبعد أن يعاديه أهل الفصاحة والبلاغة عداوة أدت إلى سفك الدماء والاجتهاد فى إثبات نقيصة له ، فلم يتمكنوا من ذلك وعجزوا ، يقوم الأعجام يثبتون نقائصه ؟ إنما ذلك من فساد المزاج الذى يجعل الحلو مراً فى الذوق . والجاهل يرى العصا فى الماء كأنها معوجة ، ويرى الأرض تجرى أمامه وهو راكب على القطار ، فيتيقن أنه ساكن والأرض ماشية . وهكذا مريض القلب فاقد العقل المحروم من نور الحكمة يقول وهو جاهل : إنى يمكننى أن أعيب عصا موسى ، وأنقص يد عيسى ابن مريم عليهما السلام ، وانتقد كلام الرسول العظيم الذى بشر به كل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وأعجز كلامه

فصحاء العالم بأجمعه ، وبلغاء بنى الإنسان بأكملهم ، حتى بلغ من سجود العقل له أنه لا يزال منذ أنزل على قلبه ﷺ ونطق به لسانه صلوات الله وسلامه عليه غضاً نضراً طرياً ، تجدد أسراره وتشرق أنواره فى كل مكان وزمان ، تغترف العلماء من فيضه الهاطل ، ونوره المتلألىء أسرار حكم ، لم تكن تظهر من قبل ، وينكشف لهم دقائق علوم وغوامض فهوم وأنوار شموس ، لم تكن تلوح من قبل ، ولا يزال غيثاً هاطلا وموردا عذباً لكل ذى قلب سليم .

لا تظهر خواص الكائنات فى أى زمان إلا وقد أشار إليها ، ولا تخترع مخترعات فى أى مكان إلا وقد نبه عنها . ولا يترقى الإنسان فى مراقى الحضارة والعمران إلا وكان به الرقى . ولا يسعد الإنسان بالإنسان إلا وكانت به السعادة .

مالى وللخوض فى هذا البحر المتلاطم بالأمواج ، إذا أنكر الضب فيضه ونفعه ، وقد اعترفت كل الأنواع الحية بفضله ونفعه ، بل ونطقت ألسنة الجمادات بخيره وبره . اللهم إلا من اختل توازن أمزجتهم فزاد عنصر من العناصر المكونة للجسم ، فقهر بقية العناصر فصار ممروراً لا يعقل ، أو بهيماً لا يتروى ، أو شيطاناً خبيثاً يقبح الحسن ويحسن القبيح ، لأنه مفطور على الخبث . وليست هذه الأنواع إلا أعداء للنوع الإنسانى ، وإن كانت على صورته ، كعداوة الأفعى له وعداوة الشيطان . وإنما يميل إليهم من هو منهم ويصغى لقولهم أشكالهم .

يجهلون مغازى أساليب العرب ومدلول ألفاظهم ، وأنواع البديع فى تعبيرهم ، وما يدل عليه اللفظ بالمطابقة أو بالالتزام أو بالتضمين ، بل ويجهلون مراجع الضمائر ، بل ويجهلون مقامات الكلام فيما يدل على التكلم أو على الخطاب أو الغيبة ، بل ويجهلون استعمال الفصاحة والتفنن فى التعبير والتوسعة فى الإفادة والبيان والتجوز بأنواعه من الكناية والمجاز والتشبيه والاستعارة ، كل ذلك يجهلونه . فمن يجهل كل تلك المفاهيم والمعالم وهو عجمى الأصل بعيد عن اللغة وأهلها ، كيف يدنس هذا الشرف العلى والمجد الرفيع بأن يدعى أنه يفهمه ، وأنه يمكنه أن ينتقد عليه أو ينكره لا حول ولا قوة إلا بالله .

لا تعجب أيها الإنسان ! فإن شبيهك فى الجهالة ومشاكلك فى الضلالة ، دعته جهالته إلى أن يبنى سلماً من الطين ويرقى به إلى السماء ليحارب رب السماء ، وهو إنسان مثلك ، وعمله أقل فى الشر من عملك ، لأن السماء ينظرها الإنسان قريبة ، والطين يمكن أن يجعل منه صرح مرتفع . وأما أنت أيها الإنسان المغرور فحفرت بئراً

عميقة ، وأردت أن تقع فى جبها ، ومن هناك تنفخ فى الشمس بفمك لتطفىء نورها . من أنت و أنت عدو الحق ، وخصم الهداية وبغيض النور ؟.

المسلم لا يعقد قلبه إلا على ماوضح دليله العقله :

لعلك تظن آن المسلم غمض عينيه وكف نور عقله ، وحكم على قلبه الذى يتقلب فى الشئون الكونية ، وقال لقلبه : اعتقد أن الإله العظيم الكبير الذى خلق تلك الآثار العظيمة ، دخل فى فرج امرأة وتجسم وصار إنساناً ؛ ثم نزل إلى الأرض ، فقال اليهود لا يكون فى الأرض إلهان ، إما نحن ، وإما أنت ، فقهروه مسكيناً وصلبوه وهو ذليل مهان مخزى . لا ، ومن خلق السموات وفطر البريات ودحا المدحُوَّات .

المسلم لا يعقد قلبه إلا على ما وضح دليله لعقله ، ومحا برهانه كل شبهة من قلبه ، وأشرقت أنواره لعينيه ، ولاحت أسراره لضميره . ولو أن الرسول العظيم الكريم قال لنا : إنى مَلك عبد تجسمت فصرت إنساناً ، لما قبلنا منه ولما سلمنا له . ولكنه قال ما أمره الله به ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾[1] وقال بلسانه ﷺ : « إنَّما أنا رجلٌ من قريش ابن امرأة كانت تأكل القديد » فدع عنك التكلم فيما لم تستطع أن تفهم ظاهره ، لأنك متنجس بقاذورات العقيدة الفاسدة ، ومتقذر بأوساخ الآراء المضلة ، والجعران يقتله الطيب ، والحوت يقتله النسيم العليل البليل ، والخفاش (الوطواط) تهلكه أنوار الشمس . لم أكتب لأناظرك ، فإنما يناظر النظير ، ويجادل المثيل . وإنما كتبت لأرشدك إلى الحق وأدعوك إلى الهدى ، عسى الله أن يهديك فتبصر النور المبين . ويدلك فتسمع الوعظ المفيد ، فتخلص نفسك من هاوية العذاب الأليم ، وحضيض السخط .

أيها الإنسان مالك وللقرآن المجيد ؟ :

أيها الإنسان وأنا إنسان أحب والله الخير لك ، وأشفق بقلبى عليك ، وأرجو لك النجاة كما أحب ذلك لنفسى ، مالك وللقرآن المجيد :

أبعد أن يمضى عليه أربعة عشر قرناً ، والقلوب خاشعة لهيبته ، والعقول ساجدة لعظمته ، والألسنة رطبة بتلاوته ، والعالم الحى بأجمعه راتعاً فى رياض النعيم واللذة بأحكامه ، والقلوب السليمة مقتبسة من أنوراه ، وهو إلى وقتنا هذا نور مضىء يلوح أسراره وتظهر أنواره ، ويفوح شذا عبيره ، تأتى أيها العجمى البعيد عن أساليب لغة نزل بها ، العمى عن فهم مدلول ألفاظ ظهر بها ، فتنتقد بها على كماله الروحانى ، وجماله

(١) سورة الكهف آية (١١٠) .

المعنوى ومحاسنه اللفظية ؟ لا يضر ضوء الشمس أنه لا يعترف به الخفاش ، ولا ينقص الشهد الخالص أنه مر فى فم المريض ، ولا يحجب الحق البين على قلوب أهله أنه ثقيل على البهائم والشياطين .

تنبه أيها الإنسان العاقل ، فليست السعادة بالعناد ، ولا النجاة بالعصبية ، ولا الفوز بسجن العقول فى هوة الظلمات ، وقهر القلوب على اعتقاد الضلالات ؟ لا أبيح للقلم أن يناظرك إجلالا لكمال كلام الله ، ولا للسان أن يتكلم معك إعظاماً لهذا المقام العلى وخوفاً على نفسى أن أكرر قولا ينجس لسانى .

اللهم إنى أعوذ بك من غضبك الذى تحجب به الأنوار عن قلوب من غضبت عليهم ، وأسألك ياذا الفضل نوراً تجعله فى قلبى وقلب كل أخ من إخوتى المؤمنين ، تبين لى به الحق والباطل ، وتعيننى به ياإلهى على اتباع الحق والبعد عن الأباطيل ، وأسألك آية من آياتك الكبرى تؤيد بها الحق وأهله ، وتذل بها الباطل وأهله ، إنك على كل شىء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

أدلة القرآن صارت فى منزلة الآيات الكبرى :

جلى للعقول أن الكتب السماوية نزلت لتكميل الجسم والنفس ، ولا كمال للنفس إلا بكمال الجسم . ولذلك كانت الوصايا الإلهية تارة تكون خاصة بالأجسام ، ومرة بالنفوس ، وأخرى عامة للأجسام والأرواح ، ولم يأت كتاب سماوى فصل تلك المعانى تفصيلاً حتى قرب أصوله وفروعه للعقل قرباً يكاد يمس إلا القرآن المجيد . فالذى أنزل منه خاصاً بالنفوس قسم العقيدة الذى قرره تقريراً كادت حقائقه أن تطمئن بها القلوب طمأنينة أكثر من طمأنينة القلب بما تشهده الحواس ، فإن العقل قد يخطىء الحواس فى كثير من مشاهداتها مثال ذلك : أن العين ترى الشمس صغيرة ، ولكن العقل يحكم بخطأ العين ، وترى الجسم العظيم البعيد صغيراً ، وترى الأرض تجرى إذا كان الإنسان على القطار أو السفينة ، وترى العود فى الماء منكسراً ، فيحكم العقل بخطئها فى تلك المشاهد ، ولكن أحكام العقول بما قرره القرآن فى العقيدة بلغت من اليقين مبلغاً صار أقوى من المشهود بالحواس ، لما أقامه من الحجج والبراهين الجلية . ومن قرأ القرآن المجيد متدبراً تظهر له جلية الأمر .

أقام الله الحجة على وحدانيته تنزه وتعالى بما جعل المسلم وهو فى آخر لحظة من مفارقة الدنيا تنكشف له الحقيقة ، فتنسيه آلام نزع الروح لما يداخله من السرور

لطمأنينة قلبه بحقيقة ما اعتقد . وتراه عند الشدائد العظيمة يرجع إلى الواحد الأحد المنزه عن الوالد والولد رجوع الطفل الصغير إلى أمة المشهودة له حساً ومعنى ، وتلك المواضع تنسى الإنسان مالا يطمئن به القلب . وأدلة القرآن صارت فى منزلة الآيات الكبرى ، التى أشهدها الله لرسله صلوات الله وسلامه-عليهم ، فترى إيمان أصغر مسلم كإيمان المسيح عليه السلام لقوة البرهان . ولو أن الله هداك أيها الإنسان للإسلام ، للإسلام ، وقرأت القرآن قراءة مسلم ، لأشرقت لك أنوار الدلائل . وإن شئت أن تفهم أنواع الدلائل التى أقامها القرآن المجيد على وحدانيته سبحانه وتعالى ، وعلى قدرته وحكمته جل وعز ، فراجع ذلك فى غير هذا المختصر .

تلك الآيات الشريفة القرآنية التى حجب العمى عن أنوارها المشرقة ، يمكن أن تلوح لك أسرارها ، وتظهر لك خفياتها إذا جردت نفسك من أن تنظر إلى الشمس بعين رمداء وبقلب مظلم بفساد العقيدة ودخان العصبية . فإذا غسلت عينيك بمطهر ، وقلبك بعزم على طلب الحق والاعتراف به من أى طريق وصل إليك ، لا نكشف لعقلك ما به يقبل ولقلبك ما به يطمئن ولنفسك ما به تسكن إلى مبدعها سبحانه وتعالى . ولكنك أيها الإنسان إذا كنت مريضاً وتعلم أن دواء الطبيب مر أو مؤلم ، وذكر لك الطبيب انزعجت نفسك وتصورته فى خيالك بأقبح صورة ، وانقبض صدرك وضاق قلبك به ، فإذا وقع نظرك عليه ومعه راحتك ، وبإقبالك عليه شفاؤك ، وبتسليمك له عافيتك لم تره بحقيقته ؛ ولكن يحجب بصرك عنه المثال الذى تخيلته ، فتراه وحشاً ضارياً أو سبعاً مفترساً ، وتفر منه ، وربما ألقيت بنفسك من شاهق لتموت ولا تراه . هكذا أنت أيها الإنسان الجاهل بكمالات نفسك ، الضال عن طريق ربك ، تتمثل كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بصورة حكم بها خيالك الفاسد ، وقلبك المظلم ونفسك الخبيثة ، فلا يقع نظرك عليه إلا وحكمت عليه بما حكم به المريض الجاهل الأحمق على الطبيب الرحيم الشفيق ، وفيه شفاؤك من أمراض نفسك وعافيتك من آلام الدنيا والآخرة وسعادتك الأبدية .

مثال أعمال دعاة النصرانية :

لا تظن أنى أرغبك فى القرآن لاحتياج القرآن إليك ! لا ومن أنزل القرآن نوراً وهدى ، أو لأدفع ضررك عن المسلمين ! لا ومن بيده نفسى . لأن المسلم كامل اليقين بما بينه له القرآن من البراهين والأدلة الناصعة ، يحتقر فى نفسه ويصغر أمام عقله مالا

يوافق القرآن من الأباطيل التى لا تقبلها العقول ، ويرى أعمال دعاة النصرانية أمامه كأعمال جماعة من البعوض دفعها الشبع وغرها طيب المرعى ، وكانت فى واد يحيط به جبلان ، وظنت لضعف إدراكها أن تقوم بزوال الجبلين ليتسع الوادى ، وغرها الجهل والحماقة فقالت : نبتدىء بكسر أعالى الجبلين ، فجهدت نفسها حتى بلغت قمة الجبل بعناء شديد وتعب ، فلما أن وصلت إلى قمة الجبل سقطت مغشياً عليها لطول المسافة . وكان على قمة الجبل ثلوج ، فلما سقطت على الثلوج تقصفت أجنحتها وجمد جسمها ، وكان بعضها لم يصل ، فلما رأى ما حل بالقسم الذى التصق بقمة الجبل أجهد نفسه فارتفع عن الثلج فلفحه السموم ، فألقاه خلف الجبل على أحجار محرقة مجدبة كان فيها طيور تتغذى بالبعوض فنادت الطيور بعضها وقالت : رزق ساقه الله إلينا ، فقال البعوض : لا والله ، قدَرٌ أوقعنا فيه جهلنا بقدر أنفسنا وغرورنا برغد العيش وإنكارنا على الحق وأهله .

وهكذا دعاة النصرانية وصلوا إلى واد خصب مما نالوه من تساهل أهل الإسلام فجرهم الطمع الأشعبى والجهل بضلالهم وبقدر الإسلام ، فأرادوا أن يزيلوا هذين الجبلين الذين أصلهما ثابت وفرعهما فى السماء ، وأبت نفوسهم الخبيثة إلا أن يتكلموا فى المقام المحمدى وفى الكلام القدسى . ويعلم الله أنهم بصعودهم هذا هاوون فى هوة الهلاك الأكبر . وسيهلكهم طمعهم ويمحقهم حمقهم . إما بانكشاف الحقيقة ورجوعهم إليها فيسعدون السعادتين ، وإما بنقمة سماوية تمحقهم بعضهم ببعض ، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] أو ينزل عليهم صواعق من السماء كما أنزل على أبرهة صاحب الفيل النصرانى الذى قام بخيله ورجله ليهدم الكعبة ، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . وإن هدم الكعبة فى الزمان الصنمى ، ليس بأعظم ذنب عند الله تعالى من تكذيبهم الله ورسوله ﷺ ، ومجاهرتهم بذلك . وعملهم هذا كعمل اليهود الذين كذبوا الله وكذبوا رسله عليهم الصلاة والسلام ، فسلط الله عليهم بختنصر ثم العمالقة ثم الرومان ، فانتقم الله منهم ، وسينتقم الله ممن ينكر كلامه سبحانه ، ويكذب رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

(١) سورة يوسف آية ٢١

نصيحة

يادعاة النصرانية : المسلم لا يكره الحكمة ، وقد أمر شرعاً أن يقبلها من حاملها مطلقاً . وإنما تألف النفوس الحق وتميل القلوب إلى الخير ، وتقبل العقول ما تسلمه . فهل أنتم تدعون إلى النصرانية ؟ أم أعداء القرآن وأعداء رسول الله ﷺ ؟ فإن كنتم دعاة النصرانية : اتركوا هذا الضلال المبين ، وبينوا بالبرهان العقلى عقائد النصرانية وعباداتها وأخلاقها ومعاملاتها ، فإن قبلها العقل كما قبل القرآن ووصايا رسول الله ﷺ اتحدنا جميعاً ، واقتديا بالرسول الأخير خاتم الأنبياء كما هى سنة الله فى رسله . ويجب على عباد الله أن يتبعوه ويتركوا العمل بالأحكام التى كانت قبله . لأن الحكيم القادر أرسل الرسل عليهم السلام بأحكام يقتضيها كل زمان كما هو الشأن فى الرقى الإنسانى فإن نبيّ الله نوح جاء بأحكام زائدة على من كان قبله ، وناسخ لبعض الأحكام . وهكذا كل نبى حتى بعث الله رسولنا هذا بما هو صالح لكل زمان إلى يوم القيامة ، لأن الله أنزل عليه الكتاب المبين لكل شيء المفصل لكل شيء وجعل الأحكام فيه كليات يستنبط منها الجزئيات فى كل زمان وآن . ظهر لنا أن الإنجيل أتى بنوع واحد من الأخلاق لا يناسب أى زمان ولا أى مكان ، ولكنه يناسب بعض العباد والزهاد الذين لو كثروا فى الوجود لانمحى الرقى العمرانى ، واندرست قوة الفكر فى خواص الكائنات ، واندرست معالم الاختراع والتقدم . حكمنا أن الإنجيل إنما جاء لأقل القليل من بنى الإنسان ، لأنه لم يقرر عقيدة ولم ينظر إلى المجتمع الإنسانى نظرة محب لبقائه ، مريد لحفظه ، ولكن نظر إليه نظرة مبغض لبقائه محب لمحقه . وليس ذلك بدين ، إنما ذلك عمل قوم من المسلمين لا يزال العقلاء ينكرون عليهم ولا يقتدون بهم ويحبونهم بقلوبهم ممن تركوا الدنيا مرة واحدة وزهدوا فيها بالكلية وأقبلوا على الملكوت بكليتهم وهم فى المسلمين كثيرون . ولو أنك قرأت تراجم الأولياء من لدن أصحاب رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا ، لرأيت فى كل زمان مائة ألف مسيح من المسلمين أو أكثر ، وليسوا أئمة للمسلمين ، ولكنهم محبوبون يتبرك بهم ، لأنهم لم يكونوا على النهج الوسط الذى جاء به القرآن المجيد . لأن القرآن حث على العمل للدنيا والآخرة ، وجعل نيل الملكوت متوقفاً على العمل فى الدنيا ، وجعل العبادات لاتؤدى بوجه كامل إلا بالدنيا ، بل أكثر أركان الإسلام لا تقام إلا بالدنيا .

ما هى أركان الإسلام ؟

الركن الأول : توحيد الله وتنزيهه سبحانه عن الشريك والنظير والوالد والوالدة والحلول . واعتقاد أن سيدنا ومولانا محمداً عبد الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ، المبين لطريقه المستقيم ، الموصل إليه الدال على كمال توحيده وتنزيهه .

الركن الثانى : الصلاة . وهى العبادة الجسمانية الروحانية ولا تكون كاملة إلا بالمال ، لأنه اشترط فيها ستر العورة ، واشترط فيها العلم الذى لا يتحصل عليه إلا بالنفقة ، وقد جمعت جميع العلوم لأجل أن تقع كاملة : فيجب على المسلم أن يتعلم علوم الفلك ليعلم المواقيت ، وعلم تخطيط الأرض من جهة القبلة ، وعلوم النفس لتكون كاملة ، وعلم الطب ليعلم الطهارة والنجاسة والقوة التى تجب عليه فيها قائماً أو قاعداً مضطجعاً . وعلوم الأخلاق ليحسن اجتماعه بإخوانه . وعلوم الهندسة ليبنى المسجد ويوقع محرابه على جهة القبلة . والقراءة والكتابة ليحفظ من القرآن مالا تصح الصلاة إلا به . وفنون الغزل والنسج لعمل ما يستر به عورته ، ويلزم على ذلك فنون الزراعة .

الركن الثالث : الزكاة . وهى توجب على كل مسلم أن يتعلم فنون التجارة والصناعة ويتقن العمل ليكتسب المال . ويتعلم علوم البيوع ليكون كسبه من حلال . ويتعلم الحساب الذى يحسن به إخراج الزكاة . ويتعلم طبقات الناس ليضع الزكاة فى مواضعها . ويتعلم فنون شروق الأهلّة حتى يخرج الزكاة فى أوقاتها الشرعية .

الركن الرابع : الصيام . ولا يكون كاملا إلا إذا علم دورة الأرض اليومية التى يتبين منها الفجر الصادق والغروب الصادق . ويعلم مقادير المسافات الأرضية حتى يفطر فى السفر الشرعى . ويعلم حقيقة الرحمة عملا بالفقراء والمساكين . ويعلم القدر الذى لا يضر من الجوع والعطش ، حتى إذا بلغ ما يضر أفطر .

الركن الخامس : الحج . وهو ركن مالى بدنى روحانى لا يقوم به إلا من عمل فى الدنيا ، حتى جمع مالابد له منه من وجه حلال ، ولا يقوم به إلا من علم أخلاق الأمم وعوائدهم بدرس علوم التاريخ . وعلم ما يضرّ وينفع من الأطعمة والأشربة ممّا هو متعود عليه وهو علم الكيمياء . وعلم ما يضر وعلم أماكن الأمن والخوف وأوقات هبوب الرياح ، ليسرع فى مكان ويبطىء فى مكان ويسير فى وقت ويقف فى آخر ، وهو العلم بالآثار الجوية . وفى تلك الأركان من العلوم التى يكتسبها القائم بها من

مكاشفه:آيات ومشاهدة أسرار ورياضة روحانية بدنية ، وتبادل أفكار واكتساب علوم ومعرفة رجال واطلاع على غرائب القدرة فى بر وبحر ، وأنواع الحكمة من أنواع الناس مالايخفى .

فهذه هى أركان الإسلام ! فما هى أركان النصرانية ؟. والأولى بعد هذا البيان أن نعمل بوصايا الإسلام ونصائحه عملا بالحق ، فإن الإنسان لا رغبة له إلا فى الخير لنفسه ، ولا قصد له إلا سعادة نفسه . ومتى ظهر الخير له أقبل عليه إن كان عاقلا وترك ما كان عليه رغبة فى سعادة نفسه وخيرها . وإن كان جاهلا أحمق تمسك بما كان عليه ولو كان فيه هلاك نفسه ، كأنواع البعوض من الطيور التى لا تكتفى بضوء النار ، ولكن يقودها الطمع حتى تقتحم جمرها فتحترق ، ولو أنك وضعت سراجاً فى الليل فى وسط زراعة لوجدت حواليه تراب تلك الأجسام التى سعت فى هلاك نفسها لجهلها وضلالتها .

لم أكتب ما كتبت إلا بعد أن درست الإنجيل درس متدبر وقرأت تعاليم الكنائس قراءة متفهم وطالعت ما وضعه الإنجيليون (البروستنت) مطالعة متأمل ، فظهر لى جلياً أن القوم مرضى ، ولكنهم يكرهون أن يظهروا أمراضهم للحكيم ، فيغيرون صفرة وجوههم بالحمرة ، ويخفون عضال أمراضهم بالدعاوى الباطلة والأكاذيب ، مما لا يسلمه طفل صغير . كل تلك الأدهان لا تزيل الأمراض وكل تلك الأباطيل الكلامية والأكاذيب قبيحة فى عين الإنسان العاقل ، ثقيلة على أذنيه ، منكرة عند قلبه ، ثقيلة على النفس ، مبغوضة للعقل،وياليتهم داموا على إخفاء أمراضهم على الحكيم ، ولكن غلبت الجهالة عليهم ، وغرتهم سحب الضلالة ، حتى تناسوا ما كانوا يتسترون منه أمام العقلاء ، وقاموا فقبحوا محاسن الحكيم وأرادوا تنفير الناس منه ، وبلغ بهم نسيان مرضهم مبلغاً جعلهم يستحسنون قبحه ويتلذذون بآلامه ، ويقيمون الأباطيل والأكاذيب الناتجة عن فساد الأوهام مقام الحجة والبرهان ، حتى صار هذا المرض والعياذ بالله عضالا ، فهوى بهم إلى هوة السخط بالتشنيع على رسل الله صلوات الله عليهم ، والإنكار على كلام الله المقدس ، كما يحتال مَنْ عنده الوديعة على سلبها من صاحبها بالحيل ، ثم ينسى أنها لصحابها ، فيخاصمه ويحاربه ، ويقيم عليه الحجة ما أضل الإنسان وما أعماه عن الحق ! وما أضله عن الهداية ! وما أجراة على ارتكاب أقبح القبائح وأشنع الشنائع !! .

لا تعجب فالذى قتل الأنبياء وصنع الصنم بيده وعبده إنسان !! . أعوذ بالله من الإنسان إذا ضل، ومن الشيطان إذا تسلط . فهلم أيها الإنسان فنج نفسك واسع لكمالاتها ، ولا تتكبر على الحق ، فإن الحق أكبر من العقول ، ومن تكبر على الحق قهره ، ومن ترك السعى لكمالات نفسه عذب .

والله أسأل أن يهدينا صراطه المستقيم ، وأن يعيذنا من شر المغضوب عليهم الذين كذبوا الأنبياء وآذوهم ، ويعيذنا من شر الضالين الذين بدلوا الحق بالباطل ، وغيروا الحسن بالقبيح . ويجعلنا من الذين أنعم عليهم سبحانه الذين سلموا لسنن الله فى خلقه ، واقتدوا بأنبيائه ، واتبعوا كل رسول بعثه الله بإيمان وتصديق ، غير متعصبين للآباء ولا مصرين على العناد ، حتى نفوز بالسعادتين ، ونحيا حياة طيبة فى النعيم الأبدى ، إنه مجيب الدعاء ، والسلام على من اتبع الهدى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الخاتمة

الحمد لله الذى خلق الإنسان ، علمه البيان ، وجعل فيه عاطفةً يرحم بها أخاه الإنسان . والصلاة والسلام على خاتم رسل الله وآله وصحبه وسلم .

اللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك وحملة عرشك ، أنى أحب الخير الحقيقى لكل إنسان ، وأنى ما كتبت هذا الكتاب إلاَّ أرجوا به وجهك الكريم خالصاً مخلصاً . فأسألك يامجيب الدعاء أن تجعله مقبولا ، وأن تنفع به جميع عبادك ، نفع هداية وبيان . وأعوذ بوجهك الكريم ياإلهى ، من أن يقع من قلوب دعاة التبشير والاستشراق موقعاً ينفرهم منه ، فيحرفون كَلِمَهُ عن مواضعه ، ويؤوِّلونه على قدر عنادهم .

واحفظنى ياإلهى من أن يكون كتابى هذا ، سبباً فى حصول شر أو خير ، بل تفضل علىّ بأن تجعله سبباً للخير العميم ، والنفع والهداية ، والعلم والعمل الصالح . وأنزله من قلوبهم منزلته من قلبى ، من إرادة الخير والسعادة والهداية لى ولهم .

ياكهيعص أعوذ بوجهك الكريم ، وباسمك العظيم من الشرِّ والضر ، ومن كيد الكائدين . وأسألك أن تحصتني بحصون عنايتك ، من كل ألم أو أذيه ، وأن تجعل لى منك سلطانا نصيراً . لا إله إلَّا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناهُ من الغمِّ وكذلك ننجى المؤمنين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محتويات الكتاب